مجلة البيان – العدد 5 شعبان 1407هـ أبريل 1987م

الافتتاحية

# انجُ سعد ، فقد هلك سُعَيْد..!

الذل: الهوان الذي يلحق الفرد أو الجـمـاعــة، ونقـيـضـه العز. وإذا أردنا أن نحلل هذا ونبحث عن أسبابه وطبيعته ، نجد - أولاً - أنه حالة نفسية تعتري الفرد نتيجة لعوامل متعددة تحيط به.

فمن طبع النفس الإنسانية حب الحياة ، والتشبث بها ، والإخلاد إلى نعيمها ، والركون إلى شهواتها.

ومن طبعها أيضاً أن تعيش لهدفٍ سامٍ، تعمل على تحقيقه، ولا تـبـالـي الـمـصـاعـب التي تعترضها من أجل ذلك. وعند هذا المفترق يتمايز الناس ، فمنهم من يفضل أن يهين جسمه ، ويتحمل المصاعب ، ولو أدى به ذلك إلى الحرمان من الحياة أو الحرية ، في سبيل أن تبقى القضية - التي نذر لها نفسه - حية ، ومنهم من يؤثر السلامة ، وتغلبه ضرورات الحياة ، ولو أدى به ذلك أن تداس كرامته ، وتسحق تطلعاته ، في سبيل أن يبقى على قيد الحياة ، متمتعاً بمستوى معيشي معين.

فهاهنا موقفان ، كل منهما يعبر عن فهم خاص للحياة ، ويتخذ الموقف الملائم الذي يتفق وهذا الفهم ، وقد عبر المتنبي عن هذا المعنى بقوله:

أرى كلَّنا يبغي الحــياةَ لنفــســـــه    حــريــصاً عليها مستهاماً بها صباً
فحبُّ الجبانِ النفس أورثه التقى(1)    وحب الشجاع النفسَ أورثه الحربا

وهنا نجد أنفسنا أمام حقيقة: هل الذل موروث أم مكتسب؟

والذي نميل إليه هو أن هذا الخلق - كغيره من الأخلاق - مكتسب عن طريق التربية التي تأتي انعكاساً للظروف الخارجية المحيطة بالإنسان. فإذا استمر هذا الخلق ، يلقنه جيل سابق لجيل لاحق أصبح وكأنه طبع موروث لا حيلة للفكاك منه.

فالذل الاجتماعي - ونعني به: الذل الذي يصيب جماعات وشعوباً، ويصبح ظاهرة مرئية محسوسة - يـنـتـج عــن تـراكـم حالات فردية تنتهج نهجاً ذليلاً في حياتها، ومن خلال اعتيادها لهذا النمط من العيش ؛ يصبح الذل وكأنه سمة بارزة تشتهر بها ، وذلك عندما تفتقد المثل الأعلى ، والفكرة السامية ، والعقيدة الدافعة، التي تتجمع حولها ، ويشعرها ذلك التجمع بسوء الحال الذي تردت فيه ، فيبعث فيها روح التمرد على هذه الحال ، لتنشط من عقالها ، وتنتفض من الموت الذي خُيِّل إليها - في فترة - أنه حياة ، وما هو -عند التحقيق - إلا حياة خالية من المعنى ، ونعني به: الحياة في ظل الذل و الاستكانة.

إن لله سنناً لا تتخلف ، تجري على الأفراد كما تجري على المجتمعات ، وعلى ضوء هذه السنن يمكننا فهم كثير من الحقائق التاريخية التي تكتنف الشعوب

والأمم في مسيرتها (2)، ومن هذه السنن أن الله تعالى - أحياناً كثيرة - يعاقب الناس ويبتليهم مقابل ذنوبهم جزاء ما فرَّطوا ، فيضرب عليهم الذل والسكينة ، ويسلط عليهم ما لم يكونوا يتوقعون ، كل ذلك من أجل أن يرجعوا عن غِّيهم ويثوبوا إلى رشدهم ، ويتخلوا عن التقصير، بعد أن ركنوا إلى الأرض واستحبوا القريب العاجل على الخير الآجل.

**عوامل الذل:**

ما الذي يجعل شخصاً ما، أو شعباً من الشعوب، ذليلاً؛ خاضعاً، مكسور الشوكة، مهيض الجناح؟ لا شك أن وراء ذلك سبباً ، أو أسباباً أدت إليه.

أما الأسباب الذاتية: فهي قابلية وأهلية للخضوع، تكبر مع الزمن، في ظل غلبة الشهوات والانقياد إلى حب الدنيا وما بها من متاع زائل.

إن الأمة عندما تصبح الشهوات فيها هي المتحكمة ، وتجعل هدفاً رئيسياً لها: "تحقيق الرفاه المادي"، بأي شكل تحقق هذا الرفاه ؛ تكون قد دخلت طور الانهيار والاضمحلال من بابه الواسع. قد تعيش سنوات - تطول أو تقصر - في ظل هذا العبث ، وقد يزدهر اقتصادها ويتضخم إنتاجها ، ويخدعها كل ذلك عن النهاية المحتومة التي ستصير إليها يوماً ما ، ولكن ريحها ستذهب ، ودولتها ستدول لا محالة ، بل إن الأمة التي تفشو فيها مثل هذه المفاهيم تصبح ألعوبة لفئة قليلة تميل بها ذات اليمين وذات الشمال ، وقد وصف الله تعالى في كتابه العزيز هذه الحالة ، ممثلة في قوم فرعون فقال ، عز وجل: ((فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ)) [سورة الزخرف 54].

فأي طاغية لا يبسط سيطرته على الجماهير إلا بعد أن تسقط هذه الجماهير صرعى الشهوات والمطامع ، وتتمرغ في أوحال الفسق والبعد عن الحق ، وعدم الالتفات إلى هدي الله والتمسك بحبله ، وتستبدل ميزان الهوى بميزان الإيمان ، أما المؤمنون الذين يبصرون الحقائق بنور الهداية ، ويَزِنون لأمور بميزان الإيمان ، فمن الصعب -إن لم يكن من المستحيل - الاستخفاف بهم، وتوجيههم الوجهة التي تجعلهم "غثاء كغثاء السيل".

وأما الأسباب الخارجية: فلها ارتباط قوي بالأسباب الذاتية ، ارتباط النتيجة ، بالسبب.

فعندما تغفل الأمة عن مقومات وجودها ، يسطو على قيادتها نفر لا يحملون الا الأهلية التي يتمتع بها الغاصب المتغلب ، ولا يمتازون إلا بما يمتاز به قطاع الطرق ، من الجرأة على سفك الدماء ، وعند ذلك تكمل الدائرة ، وتتواصل حلقات السلسلة التي يجد الأفراد والأمة أنفسهم محاطين بها ، وبعد أن كانت حالة الذل الأولى مجرد قابلية ، يصبح الواقع الجديد للأمة مدرسة منظمة لهذا الخلق الذميم ، فكل الجهود الجماعية للأمة تصبح موجهة لتغرس مفهوم الذل في النفوس.

فالقوانين ، التي تشرع، والعادات التي تشجع، والثقافة التي تسود ، والأجهزة والقنوات الإعلامية التي ينفق عليها من كدح الأمة وعرقها ، كل ذلك يسير في

اتجاه واحد هو تثبيت معاني الذل والخنوع ، وتجريد الأفراد من كل معاني عزة النفس والعفة ، وضرب وتشويه كل خلق يشير إلى تماسك الشخصية ، والبعد بها عن كل مواطن الطهارة النفسية والجسدية ، والعمل ، ليل نهار ، من أجل اقتلاع أخلاق راسخة حفظت للأمة كيانها ، وأمسكت عليها وجودها مميزاً ، وذلك بالتشكيك تارة ، وبالسخرية من هذه الأخلاق تارة أخرى ، وبالجرأة الوقحة التي يُغالي في الإنفاق عليها ، وإغداق المال والجوائز والألقاب على من يتولون كِبْرَها ، في الوقت الذي تهدر فيه الكرامات ، وتداس فيه الحريات ، وتكمُّ فيه أفواه الحق ، وتطلق فيه ألسنة الباطل ، وتنقبض فيه الأيدي عن البذل في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وإذا بقيت - بعد كل هذا - بقية لم يؤثر فيها هذا الإلحاح المتواصل على " غسل مخها " والتخلي عما تعتقده وتراه ، ووقفت - ما أمكنها ذلك - صابرة مرابطة محتسبة ؛ فهناك علاج من نوع آخر لمن لا تؤثر فيه هذه المؤثرات ، حيث يؤخذ بالشدة والعنف ، ويحارب في رزقه ، وحريته ، وسمعته.

فمن الأمور التي عملت على تعميق الذل و " تسويقه " وانتشاره على أوسع مساحة من الناس ، ما يرونه من البطش والجبروت في استخدام الأسلحة المتطورة ، إن كل من تسوِّل له نفسه أن يفكر - ولو بصمت - بطريقة تخالف منطق الاستبداد والقهر ، فضلاً عن استخدام حقه في التفكير عالياً ؛ والتعبير عما يبدو له بشكلٍ يتعارض ونية قاهريه ، سيجد أمامه - أنّى التفت ، وحيثما توجه -لافتة مكتوباً عليها: " انج سعد ، فقد هلك سُعيد " (3).

إن ذل الأمم مقدمة لظهور الفساد بشتى صنوفه وألوانه ، وإن ما يصيبها من الظلم ، وما تُرمى به من صنوف البلاء: كالفقر ، وانعدام الأمن ، وهدر الحقوق ، وتسلط الرعاع والسِّفْلة ، و... كل ذلك ليس إلا ابتلاء من الله ، وعقوبة منه على التفريط ، وحب الدنيا ، ونسيان الآخرة ، وصدق الله العظيم إذ يقول: ((ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)) (الروم 41).

وكم بين واقع الأمة الإسلامية اليوم ، والواقع الذي أوصى فيه أبو بكر - رضي الله عنه - خالد بن الوليد ، غداة مسيره لمحاربة المرتدين: " احرص على الموت توهب لك الحياة " ، فكانت حياة خالد وجنده من الصحابة الكرام ترجمة عملية لهذه الوصية ، مما جعله يقول لهرقل ، قبيل معركة اليرموك: ".. لقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحب -أنت - الحياة ".

لقد مرت على المسلمين فترات مظلمة - كهذه الفترة أو أشد - مستهم فيها البأساء والضراء وزلزلوا ، فحينما اجتاح التتار العالم الإسلامي ، ضج السهل والجبل من كثرة ما أريق من دماء المسلمين ، وأشفق المؤرخون من هول ذكره ، وبلغ الذل بالناس إلى الحد الذي جعل الجندي الأعزل ، من المغول ، يأمر الرجل ، فيضع خده وعنقه على الأرض ، ثم يأمره أن يظل على هذه

الحال ، بلا حراك ، ومن غير ما حارس يحرسه، حتى يذهب هذا ويحضر سلاحاً يحتز به رقبته!!.
وفي كل مرة زحف - ويزحف - فيها التتار والمغول وأشباههم ؛ يعملون على قذف الرعب ، واستلال روح المقاومة من النفوس ، ولم يوقف زحف المغول الأصفر إلا هتاف: "وا إسلاماه"، الذي تردد مرة في بطاح عين جالوت.
ولن يوقف المغول والتتار ، ومن في حكمهم ، إلا مثل هذا الهتاف: "وا إسلاماه".

**الهوامش:**

1 - التقى هنا : الخوف مطلقاً.
2 - راجع سلسلة مقالات: معالم حول كتابة التاريخ الإسلامي في هذه المجلة: (البيان) للأستاذ محمد العبدة.
3 - هذا مثل ، يقال في معرض التحذير والتخويف ، وقد استشهد به زياد بن أبيه في خطبته المشهورة التي تدعى: " البتراء " ، انظر لذلك البيان والتبيين للجاحظ 2/61.

# أين بواكيكم يا أهل المخيمات؟!.

إعداد. محمد أحمد عبد الله

نقلت جريدة التايمز البريطانية في عددها الصادر في 11/2/1987 تقريراً - كان قد مضى عليه أكثر من أسبوع - لأحد مراسليها عن الوضع في المخيمات الفلسطينية المحاصرة في لبنان ، تقول فيه:
(على بعد أقل من 200 ياردة من الخط الأمامي الذي يفصل بين الفلسطينيين الذين يموتون جوعاً وبين أتباع حركة أمل الذين يتمتعون بمستوى مرض للمعيشة في برج البراجنة، كان يقف بائع متجول عارضاً انبرتقال والبطاطس وأنواعاً أخرى من الفواكه والخضار للبيع.
ومن المحتمل أن يكون الفلسطينيون قد سمعوا صوت البائع وهو ينادي على سلعه على وتيرة واحدة ، وإذا كان زعماؤهم المسلمون قد أفتوهم بجواز أكل اللحوم ا البشرية كملجأ أخير ، فإن المواد الغذائية اللازمة لسد رمقهم لم تكن أبعد من مكان تلك العربة القديمة. وباستثناء إطلاق النار المتقطع ، فإن الحياة في المحيط المجاور للمخيم الفلسطيني المحاصر طبيعية تماماً).
وجاء في تقرير وقع من جانب فريق طبي أجنبي يعمل في داخل المخيم:
»الوضع حرج وغير إنساني. فلا يوجد هنا دقيق ولا طعام طازج ، ولذلك فإن النساء الحوامل والأطفال يعانون من سوء التغذية. ويتناول الناس هنا أطعمة قديمة مما يجعلهم يتقيأون ويصابون بالإسهال .. والمياه يتم الحصول عليها

من خلال حنفيات في الشوارع مع ما ينطوي عليه ذلك من مخاطر بسبب تبادل إطلاق النار ، والعديد من النساء أصبن بالرصاص على أيدي القناصة أثناء محاولتهن الحصول على الماء لأفراد أسرهن.
ونذكِّر هنا كل مسلم بأن إسرائيل والولايات المتحدة هما وراء حرب لبنان منذ البداية ، وأن حزب الكتائب كان أحد عملاء إسرائيل في تنفيذ المؤامرة ، وأن المسلمين السنة بشكل عام ، والفلسطينيين منهم بشكل خاص هم المستهدفون في هذه المؤامرة.
وقد خرجت إسرائيل بعد اجتياح لبنان عام 1982 ، وأخذت أطراف طائفية محسوبة على الإسلام تنفذ ما تريده إسرائيل في لبنان. ومنذ ذلك التاريخ ، وحتى الآن والاعتداءات الوحشية على المخيمات لم تنقطع.
ولا شك أنك - أخي المسلم - على ذكر من المذابح التي ارتكبت في: تل الزعتر، وصبرا ، وشاتيلا ، والبداوي ، ونهر البارد، وطرابلس.. غير أن هذه المذابح تجددت قبل أربعة أشهر في مخيمات شاتيلا ، وبرج البراجنة ، والرشيدية التي يقطنها حوالي 40 ألف فلسطيني بحصار أصبح فيه سكان المخيمات معزولين تماماً عن الحياة وعن العالم الخارجي وبلا مأوى أو كهرباء أو ماء أو أدوية أو مواد غذائية.
وبذلك أصبح الوضع في المخيمات الفلسطينية المحاصرة مأساوياً بكل معنى الكلمة. وأخذت أنباء الرعب تصل إلى دول العالم ، التي لا تكاد تصدق ما يحدث للمدنيين العزل من نساء وأطفال وشيوخ.
وطبقاً لتقديرات المصادر الرسمية اللبنانية فإن حرب المخيمات الفلسطينية في لبنان أسفرت حتى نهاية الأسبوع الثاني من فبراير عن مقتل أكثر من 850 شخصاً وإصابة حوالي 1800 آخرين بجروح.
وكما تقول التايمز (11/2/1987) : (فقد تسربت تقارير تبعث على الرعب ، عن الحياة داخل المخيمات المحاصرة ، سواء عن طريق اللاسلكي ، أو قصاصات الورق التي جرى تهريبها عبر خطوط الميليشيات المحاصرة. ولم يدخل أي مراسل صحفي أجنبي أو لبناني المخيمات من أجل التحقق من التقارير الخاصة بالأطفال الذين يتضورون جوعاً ).
وهكذا امتد الحصار إلى التعقيم الإعلامي وعدم السماح بدخول المراسلين الصحفيين ، وبرغم قلة ما تسرب من أخبار عن هول الفاجعة التي نقلها بعض المراسلين الأجانب ؛ فإنها أذهلت العالم مما يحدث من تجويع الآلاف وإهلاك العزل من الأطفال والنساء والشيوخ. وهؤلاء الذين كتبوا التقارير من المراسلين الأجانب - كتقرير جريدة التايمز- ليسوا متعاطفين مع الفلسطينيين لكنها فضولية صحفي أو إنسانية ، كما يقولون.
وقد أدت الأعمال الوحشية التي حدثت لسكان المخيمات الفلسطينية إلى استنكار عالمي ؛ حيث قام الكثير من الهيئات الدولية الإنسانية والحكومية من جميع أنحاء العالم تطالب بإنهاء هذه المأساة بأي شكل من الأشكال.

ففي نيويورك دعا مجلس الأمن الدولي إلى وقف حرب المخيمات فوراً وإنهاء الحصار والسماح لشاحنات الأمم المتحدة المحملة بالأغذية بدخول المخيمات فوراً [فرانكفورتر الجماينة 14/2/1987].
وفي باريس طلب الرئيس الفرنسي من حكومته إرسال مساعدات غذائية وطبية فورية للمخيمات. وفي بون قدمت الحكومة الألمانية الغربية مذكرة احتجاج ضد مذبحة المخيمات في لبنان إلى سفير إحدى الدول العربية التي تجمع حول سفارتها 50 نائباً برلمانياً ومسؤولاً من أحد الأحزاب الألمانية مطالبين بفك الحصار عن المخيمات الفلسطينية في لبنان [القبس الدولي 12/2/1987].
كما استنكرت بريطانيا استمرار محاصرة المخيمات الفلسطينية ودعت كافة الأطراف إلى وقف القتال الدائر حول المخيمات.
وأعلن المستشار النمساوي أن بلاده سترسل معونة غذائية وطبية عاجلة إلى مخيمات لبنان.
ومن المضحك المبكي أن إسرائيل التي تدعم الأطراف المحاصرة للمخيمات الفلسطينية أعربت عن استعدادها لإرسال مساعدات لسكان المخيمات المحاصرة!.. وطالب أحد أعضاء المعارضة في الكنيست الإسرائيلي بإرسال مواد إغاثة فورية إلى المخيمات الفلسطينية [ فرانكفورتر الجماينة 14/2/1987].
ومن المحزن أننا لا نجد مواقف جادة في بلادنا العربية والإسلامية لإنقاذ إخواننا في المخيمات. وما يطلق من تصريحات لا يقصد بها سوى مواقف سياسية!.
ولكي نقف على الجحيم والكابوس المتصل لإخواننا في المخيمات -كما تقول [لبراسيون الفرنسية 10/2/1987]: ننقل فيما يلي روايات الناجين من هذه المذبحة:
امرأة تقول: أتمنى أن لا يعيش أي إنسان الأيام التي عشناها ؛ كنا نموت ببطء ، هل تعلم ما معنى الحصار؟ الجوع والقصف اليومي والموت والجثث والروائح المميتة؟ [القبس الدولي 19/2/1987].
فارس علي الخطيب طفل في العاشرة من عمره قال وهو يتحدث بلهجة حزينة وبريئة ومؤلمة: »لم أعد أحتمل الجوع ولم أعد أحتمل صراخ وبكاء إخوتي الصغار الذين أصبحوا أشبه بهياكل عظمية ، ولم أعد أحتمل أصوات انفجارات القنابل والقذائف التي تتساقط علينا كالمطر« وأضاف قائلاً: »لقد حاولت مع بعض الأطفال الآخرين إلهرب من الحصار ، ولكن اثنين من الجنود أوقفونا ومنعونا من الخروج ، وقالا لنا: (كلوا أصابعكم فلن نسمح لكم بالخروج). وفي اليوم التالي سمح لقلة من الأطفال وأنا من بينهم بمغادرة المخيم المحاصر حيث رافقنا عدد من رجال الميليشيات المدججين بالسلاح ،

وأيدينا مرفوعة إلى أعلى ، وتوجهنا إلى أحد المستشفيات في منطقة مار إلياس في بيروت الغربية.
ويبدو أن أحد رجال الميليشسيات تعرف عليّ لأنه كان أحد المسلحين اللذين حالا دون هروبنا من المخيم في اليوم السابق ، ولهذا اقترب مني وأخذ يمعن النظر كما لو أنه تذكر هو الآخر شخصيتي ، ولكن بحركة عفوية اختبأت وراء أحد الجدران وأنا أرتعد من الخوف ومن شدة البرد ومن الجوع والألم ، وتنفست الصعداء حين اضطر هذا المسلح إلى التوجه إلى مكان آخر لمراقبة عملية إيصال بعض العائلات الفلسطينية إلى مار إلياس.
ويقول الطفل محمد قصاب البالغ من العمر 9 سنوات ، والذي نجح مع زميله فارس في الهرب من الحصار المفروض على المخيم: »لقد اضطرنا الحال إلى قتل الكلاب والقطط ، وقمنا بطبخها كما لو أنها لحوم البقر أو الغنم لسد جوعنا. وأضاف: إن الجوع جعلنا لا نفرق بين البقر ولحم الكلاب باستثناء أن طعم لحم الكلاب والقطط كان مالحاً بعض الشيء« [القبس الدولي 23/2/1987عن دير شبيغل].
وتقول زينة المغربي (19 عاماً) وهى ترقد على سرير بأحد المستشفيات: »أصابتني رصاصة في معدتي ولولا ضرورة إجراء جراحة لما كنت تركت المخيم«.
وقالت كاملة عبد السيد (20 عاماً): »إن رصاصة قنص أصابتها أثناء قيامها بنقل مياه من أحد الآبار إلى المخبأ الذي تقيم فيه داخل برج البراجنة.
وأضافت قولها: لم أستطع أن أخرج سوى واحدة فقط من بناتي الصغيرات الثلاث من المخيم. والاثنتان الأخريان لا تزالان هناك«.
وقال الطفل بسام البالغ من العمر سبع سنوات وقد اغرورقت عيناه بالدموع: »لا أريد أن ألعب. إنني جائع لم يكن في المخيم ما نأكله سوى الحشائش«.
ويصف محمد نصار (15 عاماً) محنة إخوانه في مخيم برج البراجنة فيقول: »كنت جائعاً ورأيت بعض الأشخص يأكلون كلباً. لم أستسغ الفكرة ولكن لم يكن أمامي خيار يذكر« ويمضي قائلاً: غلينا الكلب ثم ألقينا بالمياه بعيداً وشوينا الحيوان في العراء. كان مذاقه مراً للغاية ولكن..« [القبس الدولي 16/2/1987].
وقال كريم عوني وهو في العاشرة من العمر: »بينما كانت عناصر الميليشيات المحاصرة لنا يوزعون عليهم فطائر بالزعتر ، كنا نقتات بالحشائش من الأحواض الصغيرة« وأبلغت والدته الصحفيين : »الكلام عن أن بعضنا أكل لحم القطط والكلاب صحيح. لقد شاهدنا رؤوس هذه الحيوانات وسط ا لنفايات«.
وكان فريق طبي أجنبي يعمل في مخيم برج البراجنة قد ذكر أن الفلسطينيين اضطروا لأكل الجرذان والقطط والكلاب للبقاء على قيد الحياة بسبب الحصار الطويل. وقالت حسنة الخليل وهي أم لثمانية أطفال: »عندما ينتهي مخزون

عائلة من الحليب فإنها تشارك جارتها ما لديها من حليب حتى لا يبقى عند العائلتين أي شيء« [القبس الدولي 14/2/1987].
ويقول أحد الأطباء الكنديين العاملين في مخيم شاتيلا: إن وسط المخيم أصبح أشبه ما يكون بمزبلة هائلة. واللجان المسؤولة عن إدارة شؤون المخيم أرغمت الجميع على قص شعورهم ورش أنفسهم بمادة " د. د. ت " من أجل قتل البراغيث.
ولا يوجد هناك أي غذاء. ومياه الشرب ملوثة بمياه المجاري مما أدى إلى ظهور حالات من مرض »التيفوئيد«.
وقال أحد الفلسطينيين: »هناك مجاعة كاملة في مخيم الرشيدية فالسكان لا يجدون أي شيء داخل المخيم. وحتى الأعشاب قد نفدت ، فقد أكلوها. وهم يحاولون الآن التسلل إلى خارج المخيم من أجل التقاط بعض النباتات الخضراء. ولكن الثمن الذي يدفع في هذه الحالة يكون دم الصبية الصغار الذين يحاولون التسلل بين الأشجار« [الغارديان 7/2/1987].
نحن نستنكر الإرهاب وخطف أساتذة الجامعات ورجال الدين وغيرهم وغيرهم من أي جهة كانت ، ولكن لماذا يهتم العالم وتقوم الدول لإنقاذ هؤلاء الرهائن ولا يتحركون من أجل الفلسطينيين المسلمين ، وربما تكشف لنا الأيام بعد فترة على أن هذه الدول التي تزعم محاربة الإرهاب وهي ضالعة فيه أنها والمتأمرون كانوا يفتعلون قضايا من أجل إبادة الفلسطينيين المسلمين. إن الذين سيبوءون بجريمة قتل الفلسطينيين وحصارهم حتى الموت صنفان من الناس :
صنف يشارك في هذه الجريمة فعلياً بجسمه وعقله وماله وسلاحه ، تخطيطاً وتنفيذاً.
وصنف واقف متفرج يراقب كل ذلك ، وهو قادر على أن يفعل شيئاً ، ولا يفعل ، إما تخاذلاً وإما تجاهلاً وتآمراً. والذي يخامر على المجرم شريك له في الجريمة ، هكذا قررت هذا المبدأ البسيط جميع الشرائع، سماوية كانت أم أرضية.
وليس ما يحدث إلا محنة للمسلمين ، ودروس لهم ، ليستخلصوا منها العبرة ، فيثوبون إلى رشدهم ، وتنكشف الغشاوة عن عيون كثير منهم ، ويستطيعون بعدها تمييز الصديق من العدو.
وبعد ذلك فالظلم مرتعه وخيم ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

# الإسلام
# قول وعمل واعتقاد

الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الراجحي

دين الإسلام الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه مشتمل على أقوال وأعمال واعتقادات، بالإسلام بعث الله جميع النبيين، قال تعالى: ((ومَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ)). وقال: ((إنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإسْلامُ)). وقال نوح: ((يَا قَوْمِ إن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إلَيَّ ولا تُنظِرُونِ (71) فَإن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إنْ أَجْرِيَ إلاَّ عَلَى اللَّهِ وأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المُسْلِمِينَ)).
وأخبر الله عن إبراهيم عليه السلام أن دينه الإسلام فقال تعالى: ((ومَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إبْرَاهِيمَ إلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ولَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وإنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) إذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ (131) ووَصَّى بِهَا إبْرَاهِيمُ بَنِيهِ ويَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأَنتُم مُّسْلِمُونَ)). وقال تعالى : ((ومَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وجْهَهُ لِلَّهِ وهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ حَنِيفاً واتَّخَذَ اللَّهُ إبْرَاهِيمَ خَلِيلاً )) وبمجموع هذين الوصفين : إسلام الوجه لله والإحسان في العمل علق السعادة فقال تعالى : ((بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وجْهَهُ لِلَّهِ وهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ ولا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ)) ، كما علقها بالإيمان باليوم الآخر والعمل الصالح فقال - : ((إنَّ الَذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَادُوا والنَّصَارَى والصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ولا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ)) ، وهذا يدل على أن الإسلام الذي هو إخلاص الدين لله مع الإحسان وهو العمل الصالح الذي أمر الله به هو والإيمان المقرون بالعمل الصالح متلازمان.
فالإسلام أن تعبد الله وحده لا شريك له مخلصاً له الدين ، وهذا دين الله الذي لا يقبل من أحد ديناً سواه لا من الأولين ولا من الآخرين ، ولا تكون عبادته مع إرسال الرسل إلينا ، إلا بما أمرت به رسله ، لا بما يضاده، فإن ضد ذلك معصيته ، وقد ختم الله الرسل بمحمد - صلى الله عليه وسلم - فلا يكون مسلماً إلا من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وهذه الكلمة بها يدخل الإنسان في الإسلام.
ثم لابد من التزام ما أمره به الرسول من الأعمال الظاهرة كالمباني الخمس: الشهادتان والصلاة والزكاة والصيام والحج ، ومن ترك من ذلك شيئاً نقص إسلامه بقدر ما نقص من ذلك كما في الحديث: »من انتقص منهن شيئاً فهو سهم من الإسلام تركه«.
والدين : مصدر دان يدين ديناً ، إذا خضع وذل ، ودين الإسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده ، وهو الخضوع له والعبودية له ، قال أهل اللغة: أسلم الرجل إذا استسلم. فمن استكبر عن عبادة الله ، أو عبده وعبد معه إلهاً آخر لم يكن مسلماً ، وجميع الواجبات الظاهرة داخلة في مسمى الإسلام.

ويدخل في مسمى الدين أيضاً عند الإطلاق الاعمال الباطنة وهي أعمال القلوب ؛ كالحب والخوف والرجاء والخشية والرغبة والرهبة والإنابة والتوكل والمعرفة واليقين والصدق ، وعلم القلب وتصديقه ؛ كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.
كما يدخل فيه جميع الأعمال الظاهرة ، كالنطق بالشهادتين والصلاة وأداء الزكاة وصيام رمــضـــان وحــج بـيـت الله الحرام وبر الوالدين والإحسان إلى الأقارب والجيران والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويدخل فيه أيضاً : إفشاء السلام وإطعام الطعام والجهاد في سبيل الله وطاعة أولي الأمر في طاعة الله ونصح المسلمين وتعليمهم وإرشادهم ، ولهذا قال - صلى الله عليه وسلم - في آخر حديث جبريل الطويل :»هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم« بعد أن شرح درجة الإسلام ودرجة الإيمان ودرجة الإحسان ، فجعل ذلك كله ديناً.
وكـذلك تـــرك الـمـحـرمات داخل في مسمى الإسلام ومسمى الدين كالزنا والرياء والسرقة وشرب الخمر وأكل مال اليتيم وإيذاء الجار بقول أو فعل.
فالخلاصة أنه يدخل في مسمى الدين ومسمى الإسلام عند الإطلاق : فعل جميع الواجبات القولية والفعلية ، وترك جميع المحرمات القولية والفعلية.
والأدلة على ارتباط أعـــمـــال الـديـن بالقلب واللسان والجوارح كثيرة منها حديث جبريل المشهور فإنه سأل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الإســلام والإيمان والإحسان ، فأما الإســـلام فــقــد فسره النبى - صلى الله عليه وسلم - بأعمال الجوارح الظاهرة من القول والعمل ، وأول ذلك شهادة : أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وهو عمل اللسان ، ثم إقام الصلاة وإيــتـــاء الــزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، وهي منقسمة إلى عمل بدني ، كالصـــلاة والصوم ، وإلى عمل مالي وهو إيتاء الزكاة ، وإلى ما هو مركب منهما كالحج ، ومن الأدلـــــة أيضاً قوله - صلى الله عليه وسلم - : »الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها : قول: لا إله إلا الله، وأدناها : إماطة الأذى عن الطريق« فدل هذا الحديث على أن الإيمان أصل له شعب، وشعبه هي أعمال القلوب وأعمال الجوارح، قال - صلى الله عليه وسلم - : »الحياء شعبة من الإيما«ن وكذلك التوكل والخشية والإنابة من شعبه ، وكذلك الصلاة من الإيمان والزكاة والصوم والحج ، حتى تنتهي هذه الشعب إلى : إماطة الأذى عن الطريق ، وبين شعبة الشهادة وشعبة الإماطة للاذى عن الطريق شعب متفاوتة ، منها ما يقرب من شعبة الشهادة ، ومنها ما يقرب من شعبة الإماطة ، ومن الأدلة أيضاً قوله - عليه السلام -: »من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله ، فقد استكمل الإيما«ن ، فأدخل أعمال القلوب - وهو : الحب والبغض - في الإيمان ، كما أدخل أعمال البدن في الإيمان - وهو : الإعطاء والمنع - ومن الأدلة أيضاً قوله - صلى الله عليه وسلم - : »المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده« ، فسمى المسلم من ترك أذية الناس بلسانه ويده ، ومن ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم - : »من

حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه« ، ويدل على هذا أيضاً ما أخرجه الإمام أحمد والترمذي والنسائي من حديث العرباض بن سارية - رضي الله عنه عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال: »ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جنبي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داعٍ يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعا ولا تعوجوا ، وداعٍ يدعو من جوف الصراط ، فإذا أراد أحد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه ؛ فإنك إن تفتحه تلجه ، والصراط: الإسلام ، والسوران: حدود الله عز وجل ، والأبواب المفتحة : محارم الله ، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله ، والداعي من جوف الصراط : واعظ الله في قلب كل مسلم« ، زاد الترمذي: »والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم« ، ففي هذا المثل الذي ضربه النبي -صلى الله عليه وسلم - : أن الإسلام هو : الصراط المستقيم الذي أمر الله بالاستقامة عليه ، ونهى عن مجاوزة حدوده ، وإن ارتكب شيئاً من المحرمات فقد تعدى حدوده ، ومن الأدلة ما في الصحيحين عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- أن رجلاً سأل النبي - صلى الله عليه وسلم - : أي الإسلام خير ؛ قال: »أن تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف « ، إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة الدالة على أن أعمال الدين مرتبطة بالقلب واللسان والجوارح ، ومن نطق بالشهادتين ولم يصدق بقلبه ولم يعمل بجوارحه فمن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن الشارع - صلوات الله وسلامه عليه - لم يجعل الإيمان حاصلاً بمجرد قول اللسان ؛ فإن المنافقين يقولون : لا إله إلا الله بألسنتهم ، وهم تحت الجاحدين في الدرك الأسفل من النار ، وقد نفى الله الإيمان عنهم في القرآن الكريم كما قال تعالى: ((وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ))، وقال: ((إذَا جَاءَكَ المُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ واللَّهُ يَعْلَمُ إنَّكَ لَرَسُولُهُ واللَّهُ يَشْهَدُ إنَّ المُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)) ، وقال عن المنافقين: ((يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ))، وقال عن المشركين: ((يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ)) ، فلا يكون الإنسان مؤمناً مسلماً حتى يتواطأ قلبه ولسانه على النطق بالشهادتين ، ويعمل بجوارحه وقلبه بمقتضاهما من المحبة والطاعة والانقياد وخوف الله ورجائه والصلاة والصيام وغير ذلك ، فإنه من المعلوم بالضرورة أن الشارع الحكيم رتب الفوز والفلاح على التكلم بالشهادتين مع الإخلاص والعمل بمقتضاهما ، كما قال - صلى الله عليه وسلم - في حديث عتبان :»إن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله ، يبتغي بذلك وجهه الله« ، ولما سأل أبو هريرة النبي - صلى الله عليه وسلم -: من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال: »من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه«، وفي رواية: »مخلصاً من قلبه« ، وفي رواية: »صادقاً من قلبه دخل الجنة« ، وفي حديث آخر: »من قال : لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله« ، إذن فلابدّ من قول : لا إله إلا الله مع

معرفتها بالقلب ومحبتها ومحبة أهلها وبغض من خالفها ومعاداته ، فإن هذه الكلمة هي كلمة التقوى وهى العروة الوثقى وهي التي جعلها إبراهيم - عليه السلام - باقية في عقبه لعلهم يرجعون ، وهو - عليه السلام - يتبرأ من الشرك وأهله ، كما قال تعالى: ((وجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)).
ومن امتنع عن العمل بجوارحه وقال: الدين في القلب محتجاً بقوله - عليه السلام -: »التقوى ههنا« وأشار إلى صدره ، فيقال له: إن الإيمان الذي في القلب لابد أن تصدقه الجوارح بأعمالها ، فإن التصديق يكون بالأفعال كما يكون بالأقوال ، كما ثبت في الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال:»العينان تزنيان وزناهما النظر ، والأذن تزني وزناها السمع ، واليد تزني وزناها البطش ، والرجل تزني وزناها المشي ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه« ، وقال الحسن البصري - رحمه الله - ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ، ولكنه ما وقر في الصدر وصدقته الأعمال) ، وأما قوله - عليه السلام- : »التقوى ههنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات« ، ففيه إشارة إلى أن كرم الخلق عند الله بالتقوى ، فرب من يحقّره الناس لضعفه وقلة حظه من الدنيا وهو أعظم قدراً عند الله ممن له قدر في الدنيا ، كما قال بعد هذه العبارة: »بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم« وقال قبلها: »المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره« ، فإن الناس إنما يتعاونون بحسب التقوى ، كما قال تعالى :((إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)) ، وسئل النبي - صلى الله عليه وسلم - من أكرم الناس؟ قال: »أتقاهم لله تعالى« ، وفي حديث آخر: »الكرم التقوى« ، والتقوى أصلها في القلب ، كما قال تعالى: ((وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإنَّهَا مِن تَقْوَى القُلُوبِ)) ، وكما قال الله في الحديث القدسي، حديث أبي ذرّ الطويل. »يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً«. وفي هذا دليل على أن الأصل في التقوى والفجور هي القلوب ، فإذا برّ القلب واتقى برّت الجوارح ، وإذا فجر القلب فجرت الجوارح ، ولا شك أنه يلزم من عدم طاعة الجوارح عدم طاعة القلب ، إذ لو أطاع القلب وانقاد لأطاعت الجوارح وانقادت ، ويلزم من عدم طاعة القلب وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة ، كما قال - صلى الله عليه وسلم - : »ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب« ، فمن صلح قلبه صلح جسده قطعاً.
ومن امتنع عن النطق بالشهادتين مع قدرته على ذلك ، فلا شك أن الإسلام يزول بفقد الشهادتين إذ المراد بالشهادتين الإيمان بالله ورسوله ، والشهادتان عَلَم الإسلام ، وبهما يصير الإنسان مسلماً إذ من أقر بالشهادتين صار مسلماً حكماً ، فإذا دخل الإسلام بذلك ألزم بالقيام ببقية خصال الإسلام ، وقد ضرب العلماء مثل الإيمان بمثل شجرة لها أصل وفروع وشعب ، فاسم الشجرة

يشتمل على ذلك كله ، ولو زال شيء من شعبها وفروعها لم يزل عنها اسم الشجرة ، وإنما يقال هي شجرة ناقصة وغيرها أتم منها ، وقد ضرب الله مثل الإيمان بذلك في قوله تعالى : ((ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ)) ، والمراد بالكلمة كلمة التوحيد ، وبأصلها التوحيد الثابت في القلوب ، وأُكُلها هو : الأعمال الصالحة الناشئة فيها ، وضرب النبي - صلى الله عليه وسلم - مثل المؤمن والمسلم بالنخلة ، ولو زال شيء من فروع النخلة ومن ثمرها لم يزل بذلك عنها اسم النخلة بالكلية. وإن كانت ناقصة الفروع أو الثمر ، فمن ترك الشهادتين خرج من الإسلام ، إذ يعلم من مراد الرسول - صلى الله عليه وسلم - علماً ضرورياً أن من لم يتكلم بلسانه بالإيمان مع قدرته على ذلك ولا صلى ولا صام ولا أحب الله ولا رسوله ولا خاف الله أن هذا ليس بمؤمن وإن ادعى أنه عارف بقلبه صدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فإن معرفته بقلبه لا تنفعه والحالة هذه ؛ إذ أن الشارع رتب الفلاح والفوز على النطق بالشهادتين مع العمل بمقتضاهما، والأدلة على ذلك كثيرة مشهورة عند العلماء ، من ذلك : حديث جبريل المشهور الطويل في سؤاله للنبى - صلى الله عليه وسلم - عن الإسلام والإيمان والإحسان ، فأجابه بأن الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. ومن ذلك : حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: »بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضا«ن ، رواه البخاري ومسلم ، وفي الصحيحين عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لوفد عبد القيس: »آمركم بأربع: الإيمان بالله وحده ، وهل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا الخمس من المغنم« ، وعن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: »الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول : لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق«.

ومن أجل هذه الكلمة خلق الله الخلق ، وأرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، وخلق الجنة والنار ، قال تعالى: ((ومَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ)) ، وقال تعالى : ((ومَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إلاَّ نُوحِي إلَيْهِ أَنَّهُ لا إلَهَ إلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ)) ، وقال تعالى: ((ولَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ واجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)) وقال تعالى : ((واذْكُرْ أَخَا عَادٍ إذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ومِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ اللَّهَ)) وهذا معنى كلمة الإخلاص الذي اجتمعت عليه الرسل.

فمن نطق بهذه الكلمة عارفاً لمعناها صادقاً من قلبه عاملاً بمقتضاها فهو المسلم ، ومن امتنع عن النطق مع قدرته ولم يعمل بمقتضاها فليس بمسلم وإن ادعى الإسلام.
وفق الله المسلمين لتحقيق إسلامهم وإيمانهم ، إنه سمع مجيب.

أعلام الإسلام

# الإمام البغوي

إعداد: سليمان الحرش

الإمام الحافظ ، الفقيه ، المجتهد ، محي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الـفــراء الـبـغـوي، ويلـقـب أيضاً بركن الدين. أحد العلماء الذين خدموا الكتاب الـعـزيز، والسنة النبوية ، دراسة وتدريساً، وتأليفاً.
والفراء: نسبة إلى عمل الفراء وبيعها.
والبغوي: نسبة إلى بلدة يقال لها: "بغ" وبَغْشو ، وهي بلدة بخراسان بين مرو وهراة.

## شيوخه:

من شيوخه: القاضي حسين بن محمد المروزي الشافعي ، وعبد الواحد الهروي ، وأبو السن الجويني ، وحسان بن سعيد المنيعي ، وأبو بكر المروزي ، وأبو القاسم القشيري ، وأبو بكر الصيرفي , وأبو صالح أحمد بن عبد الملك النيسابوري ، وعبد الباقي بن يوسف المراغي الغريزي الشافعي ، وأبو الحسن البوشنجي ، وعمر بن عبد العزيز القاشاني، وأبو الحسن الشيرزي ، وأبو جعفر محمد بن عبد الله الطوسي ، وأبو طاهر الزرّار ، ومحمد بن عبد الملك السرخسي ، وغيرهم.

## صفاته وثناء العلماء عليه:

كان البغوي شافعي المذهب - بحكم البيئة التي نشأ فيها ، والعلماء الذين أخذ عنهم - إلا أنه لم يتعصب لإمامه، بل كان يتتبع الدليل، وينظر في أقوال العلماء وأدلتهم ، وأخذ يدعو إلى الاعتصام بكتاب الله تعالى ، وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم-.
قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: (كان البغوي سيداً ، إماماً عالماً ، علامة ، زاهداً ، قانعاً باليسير).
وقال السيوطي في طبقات الحفاظ: (وبورك له في تصانيفه ، لقصده الصالح ، فإنه كان من العلماء الربانيين ، ذا تعبد ونسك ، وقناعة باليسير).
وقال ابن كثير في البداية والنهاية: (وكان علامة زمانه ، ديِّناً ، ورعاً ، زاهداً ، عابداً ، صالحاً ).

## آثاره:

ترك الإمام البغوي مؤلفات كثيرة مفيدة في التفسير والحديث ، والفقه كان لها الأثر النافع والعظيم فيمن جاء بعده ، وتتصف بموضوعاتها القيمة ، وبكلماتها السهلة ، وبطريقتها المفيدة.

**ومن أهم كتبه:**

1- معالم التنزيل ، في التفسير ، وهو كتاب متوسط ، نقل فيه عن مفسري الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، قال عنه ابن تيمية: (والبغوي تفسيره مختصر من تفسير الثعلبي ، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة) [الفتاوى 3/ 354 ، 386].

2- شرح السنة ، جمع البغوي فيه بين الرواية والدراية.

3- مصابيح السنة ، جمع فيه المؤلف طائفة من الأحاديث ، محذوفة الأسانيد ، معتمداً على نقل الأئمة ، وقسم الأحاديث إلى صحاح وحسان، وعنى بالصحاح ما أخرجه الشيخان، وبالحسان ما أورده أبو داود والترمذي ، وما كان فيه من ضعيف أو غريب أشار إليه ، وأعرض عما كان منكراً أو موضوعاً. وهو كتاب مشهور ، اعتنى به العلماء. ومن أهم شروحه: "مشكاة المصابيح للشيخ ولى الدين محمد بن عبد الله الخطيب فقد أكمل "المصابيح" وذيّل أبوابه؛ فذكر اسم الصحابي الذي روى عنه الحديث، وذكر الكتاب الذي أخرجه ، وهو كتاب مخدوم مطبوع بتحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني.

**وفاته:**

توفي - رحمه الله - بـ (مرو الرّوذ) في خراسان ، في شوال سنة 516 هـ ، ودفن جانب شيخه. القاضي حسين ، وعاش بضعاً وسبعين سنة ، رحمه الله.

## التجديد في الإسلام

## (5)

# الإمام أحمد بن حنبل

# (ناصر السنة)

كان آخر القرن الثاني وأول القرن الثالث من فترات الاضطراب الفكري ، التي تركت آثاراً ضخمة في الحياة الإسلامية.

فقد كان لنشوء البدع - المتقدم على هذه المرحلة - ثم ترجمة الكتب الفلسفية واشتغال المسلمين بها وحث الخلفاء الناس على تعريبها، حيث وجد أهل البدع فيها سنداً لهم، فأصّلوا مذاهبهم على ضوئها ، وتوسعوا بشكل سافر في إدخال النظريات الفلسفية إلى صميم العقيدة الإسلامية ، أن صار ذلك العصر هو عصر النضج واكتمال بناء المذهب بالنسبة للمعتزلة، وفيه برز عدد كبير من فلاسفتهم ومنظري مذهبهم كأبي الهذيل العلاّف - شيخ

المأمون وأستاذه - ، وإبراهيم بن سيّار النظام ، ومعمر بن عباد السلمي ، وبشر بن المعتمر وغيرهم.
وقد علا شأن الرافضة - لما بينهم وبين المعتزلة من الأواصر العقدية - وبدءوا يجهرون بآرائهم في الإمامة والولاية والرجعة وغيرها.
وفي وسط هذا المناخ المضطرب نشأت كثير من الحركات السرية الإلحادية والتي عرفت بحركات الزنادقة، وكان يقف خلفها الباطنيون المتربصون بالإسلام.
وبالجملة فلقد كان ذلك العصر هو الذي وصفه الرسول -صلى الله عليه وسلم- بقوله في الحديث: " ثم ينشد الكذب "(1).
قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله- في وصف ذلك العصر: (وفي هذا الوقت ظهرت البدع ظهوراً فاشياً ، وأطلقت المعتزلة ألسنتها ، ورفعت الفلاسفة رؤوسها ، وامتحن أهل العلم ليقولوا بخلق القرآن ، وتغيرت الأحوال تغيراً شديداً ، ولم يزل الأمر في نقصٍ إلى الآن ، وظهر قوله -صلى الله عليه وسلم-: " ثم ينشد الكذب " ظهورا بيناً ، حتى يشمل الأقوال والأفعال والمعتقدات والله المستعان) (2).
وكان الخلفاء أنفسهم - ولأول مرة في الإسلام - يعتقدون البدع ويعلنونها فكان المأمون موافقاً للمعتزلة في معظم عقائدهم ، وكان إلى ذلك مرجئاً ، وجاء من بعده: المعتصم ـ، فالواثق ، فكانا على نهجه.
وقد عمل المأمون بعد ولايته على نصر مذهب المعتزلة ، فقرب رؤوسه كأحمد بن أبي دؤاد ، وعقد مجال المناظرة بين المعتزلة وخصومهم من أهل السنة ، فلما لم تجد شيئاً بدأ بالتضييق على الناس وإلزامهم بالقول بخلق القرآن ونفي الرؤية ، حتى أصبح القول بذلك شرطاً عنده لتولي المناصب بما فيها القضاء!
وحين كان بالرقة استطاع وزراؤه المعتزلة أن يقنعوه بحمل الناس على المذهب بالقوة ، فكتب إلى واليه على بغداد بجمع العلماء وامتحانهم في مسألة خلق القرآن وحمل من يرفض هذه العقيدة مقيداً مصفداً إلى المأمون.
فأجاب العلماء أجوبة تتراوح بين التقية وحسن التخلص إلا أربعة أصّروا على عقيدة أهل السنة والمجاهرة بها ، وهم: القواريري ، وسجادة ، ومحمد بن نوح ، والإمام أحمد.
ثم أجاب الأوّلان تحت ضغط التعذيب والإرهاب ، وحمل الآخران إلى المأمون مكبَّلين بالقيود ، فتوفي محمد بن نوح في الطريق ، وبقي الإمام أحمد وحده في الطريق!
ثم مات المأمون ، فرد أحمد إلى بغداد ، وأخذت الفتنة مدى أوسع في عهد المعتصم ، حيث سجن الإمام أحمد مقيداً نحواً من ثلاثين شهراً ، وكان يصلي وينام والقيد في رجله!

وفي كـل يـوم كـان يـنفـذ إلـيـه المعتصم من يناظره ويهدده إن لم يجب بأشد مما هو عليه، ثم يزاد في قيوده، وقد جهد المعتصم في التأثير على موقف الإمام بالملاينة والعطف وإظهار الـفـضـل، والـتـرغـيـب والـوعـد.. فكانت كلمة الإمام واحدة لا تتغير. حتى إذا استفرغوا وسـعـهـم أضـمـروا الـشـدة والـقـسـوة، وشعر الإمام بذلك فكان يشد عليه سراويله وينتظر الضرب، فيأتي المعتصم يناظره ويناظرونه ، حتى يثور غضبه فيشتم الإمام ويأمر بسحبه وتخليعه ، وظلوا على هذه الحال يأتي الجلادون بالسياط الغليظة فيردها المعتصم. ليطلب أغلظ منها ويأخذ الجلادون دورهم فيضربه كل واحد منهم سوطين ، والمعتصم يحرضهم وهـو واقـف على رؤوسـهـم حـتى أغـمـي على الإمام أحمد، فلما أفاق جاؤوا إليه بسويق، فقال: لا أفطر! وصلى - رحمه الله - والدماء تسيل في ثوبه.
قال الإمام أحمد: ذهب عقلي مراراً، فكان إذا رفع عني الضرب رجعت إليَّ نفسي ، وإن استرخيت وسقطت رفع عني الضرب.
وقال أحد الجلادين: لقد ضربت أحمد ثمانين سوطاً لو ضربتها فيلاً لهدته.
وكان الإمام أحمد ينتظر الشهادة في سبيل الله ، فحين نخسه أحد الحراس بسيفه فرح وقال: جاء الفرج، يضرب عنقي وأستريح، فقال ابن سماعة (3): يا أمير المؤمنين: اضرب عنقه ودمه في رقبتي، فقال ابن أبي دؤاد: لا يا أمير المؤمنين، إن قتل أو مات في دارك قال الناس: صبر حتى قتل ، فاتخذوه إماماً ، وثبتوا على ما هم عليه ولكن أطلقه الساعة فإن مات خارجاً عن منزلك شكّ الناس في أمره.
فـأخـرج الإمـام أحـمـد وفي كـل مـوضـع منه جراحة حتى إن أحداً لمّا هم بمساعدته على الـنـزول من الـدّابــة وقعت يده على بعض تلك الجراحة وهو لا يشعر فصاح الإمام أحمد فـنـحـى يـده عـنـه. وجاءه بالطـبـيب فكان يدخل الميل في بعض الجراحات ، وكان يأتي بالحديدة فيعلق بها بعض لحمه ليقطعه بالسكين وأحمد صابر يحمد الله.
ولما مـات المـعـتـصـم وولي الواثق فرض الإقامة الجبرية على الإمام أحمد، فلا يخرج حتى للـصـلاة، ولا يجـتـمع إليه أحد، حتى هلك الواثق، ثم جاء بعده المتوكل، فرفع المحنة، ونصر السنة ، وقرّب أهلها.
لقد كان انتصار الإمام في تلك المحنة الرهيبة القاسية انتصاراً للتيار الأثري الملتزم بما كان عليه سلف هذه الأمة في جميع نواحي الاعتقاد ، وليس في مسألة القرآن فحسب ، فثبت الناس على ما هم عليه بفضل الله ، ثم بفضل وجود القيادة التي تتحطم عندها أمواج البدعة ، وهذا كان رد الإمام أحمد على المروزي حين طلب منه التقية فقال له: اخرج فانظر! قال: فخرجت فرأيت خلقاً لا يحصيهم إلا الله تعالى ، والصحف في أيديهم والأقلام والمحابر ، فقال لهم: أي شيءٍ تعملون؟ قالوا: ننظر ما يقول أحمد فنكتبه!
يقول الشيخ أحمد شاكر تعليقاً على موقف الإمام أحمد:

(أما أولو العزم من الأئمة الهداة ، فإنهم يأخذون بالعزيمة ، ويحتملون الأذى ويثبتون ، وفي سبيل الله ما يلقون ، ولو أنهم أخذوا بالتقية ، واستساغوا الرخصة لضل الناس من ورائهم ؛ يقتدون بهم ولا يعلمون أن هذه تقية ، وقد أُتي المسلمون من ضعف علمائهم في مواقف الحق.. لا يجاملون الملوك والحكام فقط! بل يجاملون كل من طلبوا منه نفعاً أو خافوا ضرّاً في الحقير والجليل من أمر الدنيا.. ، ولقد قال رجل من أئمة هذا العصر المهتدين: " كأن المسلمين لم يبلغهم من هداية كتابهم فيما يغشاهم من ظلمات الحوادث غير قوله تعالى: ((إلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً))، ثم أصيبوا بجنون التأويل فيما سوى ذلك.." (4).

لقد صار الإمام أحمد علماً شامخاً يقتدى به ويقتفى أثره ، وارتبط به مذهب أهل السنة أيما ارتباط حتى ليقال: عقيدة الإمام أبي عبد الله ، ولا شك أن جماهير العلماء والأئمة في زمنه كانوا على ذات العقيدة ، ولكنها عرفت به لما بذل في سبيلها وتحمّل من أجل إقرارها. قال بعض العلماء عشية دفن أحمد: "دفنا اليوم سادس خمسة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، وعمر بن عبد العزيز ، وأحمد بن حنبل (5).

وقيل لآخر: لو تكلمت يوم ضُرب أحمد؟! قال: أتأمروني أن أقوم مقام الأنبياء؟ (6). وقال إسحاق بن راهويه: لولا أحمد وبذل نفسه لما بذلها له لذهب الإسلام (7). وقال الحارث بن عباس: قلت لأبي مسهر: هل تعرف أحداً يحفظ على هذه الأمة أمر دينها؟ قال: لا أعلمه إلا شابٌ في ناحية المشرق، يعني أحمد بن حنبل (8). وقال علي بن المديني: إن الله أعز هذا الدين بأبي بكر الصديق يوم الردة ، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة. وقال أبو حاتم: إذا رأيت الرجل يحبُ أحمد فاعلم أنه صاحب سنة (9).

ولقد مر زمان والإمام أحمد أعزل من كل شيء ، وحيد فريد ، لا يجلس إليه أحد ، ولا يعضده في موقفه أحد.. وكان لأعدائه الجاه والسلطان والدولة ، فكان يقول: قولوا لأهل البدع: بيننا وبينكم الجنائز!. فلم تمض أويقات قليلة حتى علا شأنه ، رحمه الله ، وذاع صيته ، وانتشر مذهبه ، وعظم قدره، حتى تضايق هو من ذلك ، وتمنى الموت لكراهيته للشهرة وحبِّه للخمول. أما في الموت فإن أقل ما حرزت به جنازته سبعمائة ألف إنسان!.

قال ابن كثير - رحمه الله تعالى -: (وقد صدق الله قول أحمد في هذا ؛ فإنه كان إمام السنة في زمانه ، وعيون مخالفيه ، أحمد بن أبي دؤاد وهو قاض من قضاة الدنيا لم يحتفل أحدٌ بموته ، ولم يلتفت إليه ، ولما مات ما شيعه إلا قليل من أعوان السلطان ، وكذلك الحارث بن أسد المحاسبي مع زهده وورعه وتنقيره ومحاسبته نفسه في خطواته وحركاته لم يصل عليه إلا ثلاثة أو أربعة من الناس ، وكذلك بشر بن غياث المريسي لم يصل عليه إلا طائفة يسيرة جداً ، فلله الأمر من قبل ومن بعد) (10).

ولم يكن هذا هو الجانب الوحيد الذي قاد فيه الإمام أحمد معسكر أهل السنة فخرج ظافراً منصوراً ، بل إن ثمة جوانب أخرى كثيرة نشير إشارة سريعة إلى واحدٍ منها ألا وهو وقوفه - رحمه الله - في وجه طغيان المادة ، وسريان روح الترف القاتل في أوساط المسلمين.
فقد كان في نفسه - رحمه الله - مثلاً أعلى في الزهد والورع والتعفف والإعراض عن زخارف الدنيا ومباهجها ، ولقد رفض أموال السلاطين ، ولم يقبل عطايا المتوكل ، كما فرض على بنيه وقرابته عدم أخذ شيءٍ من ذلك ، فكان المتوكل يصلهم سراً ! وله في الزهد والورع حكايات عجيبة عجيبة ، ولا ندري والله ما نأخذ منها وما ندع ، فليراجعها من شاء في مظانّها ؛ فهي مما يحرك في النفس عزيمة الاقتداء.
ولقد صنف - رحمه الله -في ذلك كتابي: (الزهد) و (الورع).
وإن كنّا من وراء هذه المفاوز البعيدة نقراً سيرته فنتطلع إلى الإقتداء والاتباع والاهتداء ، فما بالك بالناس في عصره وهم يرون بأعينهم - على الدوام - ما نسمعه نحن سماعاً، فلا يكاد يستقر في الأفهام ؛ بل ما بالك بتلاميذه وأقرانه وأبنائه وجيرانه..
أيّ روحٍ يشيعه وجود مثل هذا الصديق بينهم؟ (11).
**"يتبع"**

**الهوامش:**

1 - سبق تخريج الحديث من حيث أصله ، وهذه الرواية عند ابن ماجه.
2 - فتح الباري ، ج 7 ، ص 6.
3 - ابن سماعة هذا كان صلى مرة بالإمام أحمد في السجن والدم يسيل من جسده! فقال له: صليت والدم يسيل من ثوبك! فقال أحمد: قد صلى عمر وجرحه يثعب دماً !.
4 - مقدمة المسند ، ج 1 ، ص 98 (هامش).
5 - حلية الأولياء لأبي نعيم ، ج 9 ، ص 166 ، دار الكتاب العربي.
6 - الحلية ، ج 9 ، ص 170.
7 - أيضاً ، ص 171.
8 - ترجمه الإمام الذهبي في تاريخ الإسلام (مقدمة المسند) ج 1 ، ص 65.
9 - تقدمة الجرح والتعديل ، ج 1 ، ص 308 ، دار الكتب العلمية.
10- البداية والنهاية ، ج 10 ، ص387 ، ط مكتبة الأصمعي بالرياض.
11 - انظر ترجمة الإمام أحمد في: تقدمة الجرح والتعديل ، ج1 ، ص 292 ــ 314 ، وحلية الأولياء ج9 ، ص 161 ــ 234 ، ومقدمة المسند ، ج1 ، ص 58 ــ 133 ، وفى آخره ذكر مصادر أخرى للترجمة ، وهى مهمة فلنراجع.

## الحرية العرجاء

طارق عبد الحليم
في إحدى قاعات الدراسات.. الـعـلـيا بجـامـعة بريطانية عريقة ، ثار نقاش بين جمع من الطلاب الإنجليز حول التركيبة الاجـتـمـاعية الحالية للمجتمع في هذه البلاد ، وعلاقتها بالنظم السياسية والاقتصادية. وقد اشترك في بداية النقاش بعض الطلبة العرب ، ثم آثروا ترك المجال لأبناء البلد ليدلي كل منهم بدلوه في ذلك الأمر.
وقد آثرت أن أثبت - بإيجاز - ذلك الحوار لما فيه من صدق وتلقائية.. وكما قيل »من فمه ندينه«.
أبدى أستاذ القسم ملاحظة حول تكوين النقابات العمالية ونشأتها،وما يتعلق بنظام الأجور القومي الذي اتفق عليه بين أرباب العمل، وبين النقابات، وارتباطه بنوعية العمل ، وبيّن أن ذلك يرتبط بعدة أمور - عدا كمية العمل ونوعيته - كعمر العامل وجنسه! أي رجل أم امرأة ..
وعند تلك النقطة تدخّل أحد الطلبة قائلاً : إن ذلك الأمر لمن غرائب هذا المجتمع ، إذ لا يوجد أي سبب يبرر ذلك التمييز في الأجر؟! فالمرأة التي تعمل في وظيفة ما ، تتقاضى أقل من الرجل الذي يشغل الوظيفة نفسها ، ويؤدي الجهد نفسه ، ويقضي ساعات العمل نفسها [حوالى 75% من أجر الرجل ].
وأبدى أن ذلك يتناقض مع ما يدعيه المجتمع الإنجليزي من حرية ومساواة ، خاصة في مجال المرأة وحقوقها..
وكان ردّ أحد الطلبة البريطانيين - والذي تجاوز الخمسين من العمر - قائلاً : إن ذلك يرجع إلى أصل ما كان عليه المجتمع الغربي قبل عدة عقود من تقاليد ومبادئ تتخذ العائلة كوحدة اجتماعية للبناء الاجتماعي ، فالرجل كان هو المسؤول عن العائلة ، بما فيها المرأة والولد ، وهو الذي عليه أن يوفر ما يحتاجه البيت ، والأسرة ، والمرأة محلها داخل البيت كزوجة ، وأم للأولاد ، فيحتفظ المجتمع بتوازنه لاحتفاظ الخلية العائلية بتوازنها ، أما من بعد الثورة الصناعية ، والتطورات الأخيرة في العقلية الأوربية من اختلال للمعايير والموازين ، وبزوغ فكرة الحرية الفردية وعلو شأنها حوالي منتصف القرن الماضي - بما تحمله تلك الكلمة من حق وباطل - فإن الوحدة الرئيسية للمجتمع لم تعد العائلة ، بل صارت »الفرد« رجلاً كان أم امرأة.. ومن ثم.. وبعد أن تبدلت القيم والمفاهيم ، وشاعت الحرية - صارت المرأة لا تعني الزوجة أو الأم للرجل ، بل زميلة العمل أو الصديقة والخليلة ، ولم يعد الرجل بحاجة إلى الزواج وإقامة العائلة كوحدة اجتماعية-في غالب الأحيان - فحاجاته الطبيعية ملباة دون مسؤوليات تلقى على عاتقه ، وهو حر في التنقل بين امرأة وامرأة ، كما أن المرأة حرة في التنقل بين رجل ورجل ، كما تقتضيه دفعة الجسد العمياء ولقد كان من المنطقي ، وليتناسق النظام ، أن تتساوى

الأجور ، إلا أن ذلك لم يحدث ، وظل القانون يحتفظ بتلك الصورة القديمة الكامنة في الفطرة الإنسانية ، والتي تجعل من الرجل المسؤول عن تأمين احتياجات العائلة ، ومن المرأة زوجة وأماً..

وساد صمت على القاعة لعدة دقائق راح فيه كل طرف يقلب الأمر على جوانبه بين مؤيد ومعارض. وكنت أعجب من ذلك الحوار الذي أنطق الله فيه أحد عقلاء الإنجليز بالحق ، وأظهر فيه ذلك التعارض القائم بين ادعاء الحرية والمساواة - خاصة في مجال المرأة - وبين ما هو واقع الحال من تفرقة عجيبة لا أساس لها من المنطق العادل بحال - إن حاكمناهم على أصولهم في الحكم على الأمور - تجعل المرأة في الصف الثاني مهما بذلت من جهد وعرق ، مثلما يبذل الرجل..

وإن كان عجبي كبيراً من ذلك المنطق الأعوج ، وانحراف الفطرة عن طبيعتها لمّا تركت الهدي الإلهي ، وزاغت في طريق الضلال.. فإن عجبي لأكبر ممن هم من أبناء جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا ، ويدعون إلى تلك الفوضى الاجتماعية التي يلبسونها ثوب الحرية زوراً وبهتاناً ، وينادون في كل ناد أن: اعطوا المرأة المسلمة حقها أسوة بالمرأة الأوربية!! بل ويقف بعض المسلمين الطيبين موقف الدفاع على أساس أن المرأة المسلمة لها حقوق كذلك في الإسلام أسوة بالمرأة الغربية!؟.

ونحن نرد عليهم دعواهم ، وندعي خلافها : أن المرأة الغربية لم تنل حريتها حقاً وصدقاً.. ويالها من حرية تلك التي تشقى بها المرأة في الكد والعمل خارج البيت ، وبالوحدة واحتمال الولد - غير الشرعي - ومسؤولياته ، ومواجهة الحياة دون رفيق يعين على ذلك العناء.. ثم تتقاضى أجراً أقل من مثيلها من الرجال..

والقانون الإنجليزي لم يحتفظ بتلك الصورة ورعاً وتقوى! إنما احتفظ بها لأنها تخدم أصحاب رؤوس الأموال ، في مجتمع رأسمالي يؤمن بالنفعية كأساس للتعامل ، فالمرأة تحتاج إلى العمل بعد أن تخلق عن دورها الطبيعي ، وبعد أن تخلى عنها الرجل ، ولا بأس إذن من تحقيق فائض من الربح عن طريقها.

ونحن - وإن كنا لا ندعي أن حضارة الغرب شر كلها لا يشوبه خير ؛ قط إذ أن ذلك لا يكون في أمر من أمور الدنيا التي خلقها الله سبحانه على امتزاج الأمرين معاً ، فخير غالب يشوبه بعض الأذى ، أو شر غالب يسري فيه بعض الخير - قد قصدنا إلى بيان أحد أوجه النقص وأكثرها أهمية في المجتمعات الغربية وغيرها ، التي ارتضت طريقة عيشها ليعلم المسلمون أي خير هم عليه ، وأي حق هيأ لهم.. ويا ليتهم يعلمون فيعملون.

أدب وتاريخ

# الحلم

للشاعر: معن بن أوس المزني (*)

1- وذي رَحِمٍ قـلَّـمـتُ أظـفـار ضِـغْـنِـه بحلـمـيَ عنه ، وهو ليس له حِلم
2- يحاول رَغْـمـي لا يُـحـاولُ غــيـــره وكالموت عندي أن يَحُلَّ به الرَّغْمُ
3- فإن أعفُ عنه أغض عيناً على قَذىً وليس لـه بـالـصَّـفْح عن ذنبه علمُ
4- وإن أنـتـصـر مـنـه أكُـن مـثل رائشٍ سهامَ عدوٍّ يُستـهــاضُ بها العظمُ
5- صبرتُ على ما كان بـيـني وبـيـنــه وما تستوي حرب الأقاربِ والسِّلمُ
6- وبادرتُ منه النأيَ والـمـرءُ قــــادرٌ على سهمه ما كان في كفـه السهم
7- ويشتم عِرضي في الـمـغـيب جـاهــداً وليسَ له عندي هَــوَانٌ ولا شـتــم
8- إذا سُمتُه وَصلَ الـقــرابة سـامـنـــى قطيعتَها ، تلك السـفـاهــةُ والإثمُ
9- وإن أدعه للنِّـصـف يَـأبَ إجـابــتـي ويَدعو لحكم جائرٍ غيرةُ الـحُـكـم

## شرح الأبيات (**)

1 - رب صاحب قرابة كان ذا ضغـيـنـة وحقد عليّ ، أزلت أضغانه بحلمي وصبري ، مع أنه ليس عنده حلم وإنما هو غضوب نفور.
2 - ومن صفاته أنه يحب قهري وإنزال الأذى بي ، وقد وقف جهده على هذا ، في حين أنني أكره مساءته ونزول أي أذى به كراهيتي للموت.
3 - وأنا في حيرة من أمري معه ، فإنـنـي إن أصبـر عـلى أذاه وأعف عنه ، أتحمل مشقة عظيمة بذلك ، وهو لا يدري المعاناة التي أعانيها بالصـفـح عن ذنبه ، وليس يدري حتى بالصفح نفسه.
4 - ويؤلمني أن أقابل إساءته بمثلها أشد الألم ، إذ أنني سأكون كمن يجهز السهام لعدوه ليرمي بها من جهزها.
5 - لـكـن فضلت الأولى وهي الصبر على ما بدر منه تجاهي، لأنـنـي وجـدت أن حـرب الأقارب مر الأثر ، ففضلت مسالمتهم.
6 - ووصلته بعد أن نأى وتباعد عني ، مع أنني قادر على قطيعته.
7 - وفعلت ذلك مع جده واجتهاده في شتم عرض وأنا غائب ، في حين لم يخب مني ما يسوءه من شتم ولا إهانة.
8 - وإذا ما عرضت عليه التواصل وترك التقاطع والتدابر بحق القرابة والرحم كان جوابه القطيعة ، فياللسفاهة ، وياما أشد جراءته وحرصه على كسب الإثم.
9 - وإن دعوته للإنصاف، وأن يحل كل منا صاحبه يرفض هذه الدعوة،ويختار الاستمرار في الغي والجور عن القصد.

10- فلـولا اتـقـاءُ الله والـرَّحــم التي رعـايـتـهــا حـقٌّ وتعـطـيـلـها ظـلـــم
11- إذاً لـعـلاه بــارقــي وخَـطـمـتُــهُ بوسْـمِ شَـنـَـــارٍ لا يـشـابـهــه وســــم
12- ويسعى إذا أبني لـيـهدمَ صَالِحي وليس الذي يبني كمن شأنه الـهـــدم
13- يودُّ لو أنِّي مُـعــدِمٌ ذو خـصـاصـة وأكرهُ - جهدي - أن يخالطه العدم

14- ويعتدُّ غنماً في الحوادث نكبتي وما إن له فيها سَناءٌ ولا غُنم
15- فما زلتُ في ليني له وتعطفي عليه كما تحنو على الوَلَدِ الأمُّ
16- وخفضي له مني الجناح تألفاً لتدنيهُ مني القرابةُ والرَّحمُ
17- وصبري على أشياء منه تريبني وكظمي على غيظي، وقد ينفع الكظمُ
18- لأستلَّ منه الضِّغنَ حتى استللتُه وقد كان ذا ضِغن يضيق به الحزم
19- رأيتُ انثلاماً بيننا فرقَعتُه برفقي أحياناً، وقد يرقع الثَّلمُ
20- وأبرأت غِلَّ الصدر منه توسُّعاً بحلمي كما يشفى بالأدوية الكلمُ
21- فأطفأت نار الحرب بيني وبينه فأصبح بعد الحرب وهو لنا سلمُ

10-11- فلولا تقوى الله ، والخوف من قطع الرحم التي أوجب الله وصلها ، وعدَّه - سبحانه - ظلماً وأي ظلم ؛ لناجزته العداوة ، ولعلوته بالسيف ، وللحقه مني عار دائم لا يفارقه.
12 - إنه يصر على هدم ما أبنيه ، وإفساد ما أصلحه ، وشتان ما بين بان وهادم ومصلح ومفسد.
13 -وأنا وإياه على خطتين مختلفتين: فبينما هو يتمنى لي الخصاصة ويحب لي الفقر ، فإنني أكره له ذلك وأعمل جهدي على تجنيبه ما يضر به.
14 - لقد أعمى الحقد بصيرته ، وقلب بغضه لي الموازين في نظره ، حتى أصبح يعد ما يصيبني من نكبات ومصائب مغنماً له ، وزيادة في ربحه ، مع أنه في الحقيقة لا تعود مصائبي عليه برفعة قدر ، أو بمنفعة مادية.
15 - ولم أمل من مداراته وملاينته ، كما تفعل الأم الرؤوم في حنوها على ولدها.
16 - ولقد بلغت معه الغاية في التواضع وخفض الجناح ، أتألف قلبه ليتذكر القرابة التي تربط بيننا والرحم التي تجمعنا.
17 - وصبرت على أفعاله المريبة ، وكظمت غيظي على ما يثيرني من تصرفاته الغريبة ، لاعتقادي أن نتيجة كظم الغيظ محمودة في النهاية.
18 - كل هذا فعلته من أجل أن أداوي مرضه ، وأستل منه حقده ، وأروض نفسه الشموس التي امتلأت حتى ضاقت بهذا الضِّغن.
19 - وكانت علاقتنا مثلومة معيبة ، فعالجت هذا الثلم بترفقي وحكمتي ، والفساد قد يصلح ، والخرق قد يرقع.
20 - وكان مريض الصدر بالغل فداويت هذا الغل بحلمي كما يداوى الجرح بالأدوية فيشفى.

21 - لقد كان بيني وبينه حرب مشتعلة ، فما زلت أداريه ، وأترفق به ، حتى حولته عن تلك العداوة، وأطفأت تلك النار ، وصار لنا سلماً بعد أن كان حرباً.

## @حول القصيدة

هل عانيت العناء من جراء سـلـوك أحد أقربائـك، وهل آلمـك أن يقابل معروفك بالتجاهل، وإحسانك بالإساءة ، وهل صبرت على علاج من هذه حاله ، ومنيت نفسك بتغيره حيث كل الدلائل تشير إلى العكس ، وهل جوبهت بالصد والسَّفهِ وصنوف الجحود وأنت كاظم صامت ، تعتمل في داخلك براكين الغضب المكتوم ، تجللها بسمة رضيَّة ، ومرةً إثر مرة تواترت الإساءات، وتتابعت الإثارات، وأنت في كل ذلك كأنك محتبس في زنزانة ضيقة، وأفعى ذات فحيح ليس لك منها فكاك، ولا عنها مهرب، ومازلت تداورها في حسن تأتٍ وصبرٍ حتى استللت سُمُّها ، وخضدت شوكتها ، فأسلست قيادها بعد طول نفار.

إذا كان لك عهد بهذه التجربة ، أو سمعت من اشتكى مما يشبهها ؛ فإن الشاعر »معن بن أوس المزني« خلّد لنا ذلك في هذه القصيدة.

وقد امتازت هذه القصيدة بثلاث ميزات.

### 1 - سهولة وبساطة ، في جزالة وقوة أسر:

وهذه معادلة صعبة المرتقى ، إذا تحققت في أسلوب شخص فقد حقق البقاء له ، وأن تتسع مساحة الإعجاب به إلى مدى لا يرام.

فقد يظن بعض الناس أن السهولة تعني الضحالة ، وأن الجزالة تعني الجفاء والوعورة ، وهذا ظن خاطئ تدحضه هذه القصيدة ، فعلى الرغم من أنها من عصر متقدم ، (إذ أن قائلها شاعر مخضرم) إلا إنها -في سهولتها وانسياب ألفاظها - تدخل العقل والنفس دونما عناء ، وتثبت لنا أن في أدبنا القديم نصوصاً خالدة محجوبة عنا بغبار ما يثيره أعداء هذا الأدب ، وخصوم هذه اللغة من أضاليل ودعاوى الصعوبة والخشونة ، ويكفي دليلاً على هذا أن تقرأ هذه القصيدة بهدوء وروية ، فتجد أنها تتسلل إلى الوجدان رويداً رويداً ، وتتابع ألفاظها وجملها رخية ندية ، راسمة بدقة حدود شخصيتين مختلفتين أشد الاختلاف ، متباينتي السلوك والطبع أبعد التباين ، دون إسفاف وهبوط حين تصف الشخصية السيئة ، ودون إسراف في الفخر ، وإمعان في الخيلاء ، حين تصف قائلها.

### 2 - صدق في التعبير ، وسمو في المقصد:

فالشاعر مر بتجربة شخصية، صورها أصدق تصوير، واستهدف من وراء ذلك إبراز محاسن الحلم وكظم الغيظ ومداراة ذوي الأرحام والرفق بهم، والتنفير من الحمق والقطيعة، والرد على الإساءة بمثلها ، والانتصار للنفس ، كل ذلك بعبارة نظيفة عالية ، تتناسب مع هذا المقصد النبيل ، بعيداً عن أسلوب الوعظ المباشر الذي تستثقله النفوس ، وتمله القلوب.

## 3- حكمة وعمق في تصوير النفس الإنسانية:

ها هو ذا الشاعر يبدو وكأنه يبوح لأحد جلسائه بتجربته ، مضطجعاً في كِسرِ ( 1) بيته ، هادئ النفس ، مطمئن السريرة ، لم يحجب الغضب بصيرته طلباً للثأر ، مقدماً بكلمة (ذي رحم) لتكون بمثابة »الحيثية« التي بنى عليها سلوكه الآتي ، حتى لا يقال له - وقد أكثر من تصبره وتذلله إزاء هذا الذي لا يستحق كل ذلك -: لقد أتعبت نفسك ، وألزمتها ما لا يلزم ؛ فإن الرحم تستحق ذلك وأكثر منه ، (ويبدو أن الشاعر قد قال قصيدته في الإسلام ، وهذا ظاهر من تأثره بقوله تعالى: ((واتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ)) في قوله: ولولا اتقاء الرحم...).

ويستمر في تصوير الأخلاق المتقابلة في هاتين النفسين المتباعدتين. حلم وطيش ، وحرص على الإغاظة وبعد عنها ، ومعاناة عند العفو وتجاهل له ، واقتراب من هذا ، وابتعاد من ذاك ، وشتم مقذع بظهر الغيب وتنزه عنه في كل حال ، وصلة للرحم وقطيعة لها ، وهدم يقابله بناء ، وحرص على نزول المكروه بشخص يحرص على حب الخير... الخ ، في عمق وحكمة تتوالى إلى آخر القصيدة ، في موجات متساوية متراخية ، يذوب في خلال حروف المد فيها ، وفى ثنايا »أسباب وأوتاد البحر الطويل« توتر نفس الشاعر وغيظه المكبوت، إلا موجة واحدة تعلو عن أخواتها ، حاملة لنا قدراً وافراً من شحنة الغضب والضيق والتبرم التي لا يمنعها من الانفجار إلا تقوى الله الذي حض على صلة الأرحام والصبر على أذاهم ، وحذر من قطيعتهم ، وهي هذان البيتان:

10- فلولا اتقاءُ الله والـرَّحِـم الـتـي رعايـتـهـا حقٌّ وتعطيـلـهـا ظلـم

11- إذاً لـعـــلاه بارقي وخَطَـمـتُــــهُ بـوسْـمِ شَـنَـارٍ لا يـشـابهـه وسم

ثم تعود الموجات إلى هدوئها واستقرارها.

وبين البداية :

وذي رحم قـلّـمـت أظـفـار ضغـنـه بـحـلـمـي عنه وهو ليس له حلم

والخاتمة:

فأطفأت نار الحرب بيني وبـيـنـه فـأصـبح بعد الحرب وهو لنا سلم

تنتظم روح شعرية واحدة ، استلهمت البساطة والبعد عن التعقيد للتعبير عن نوازع النفس الإنسانية وأهوائها المتناقضة في بناء شامخ وصلب ، فالتحم البدء والختام.

لكل هذا لا نستغرب إعجاب عبد الملك بن مروان بمعن بن أوس ، حيث عدّه - بهذه القصيدة - أشعر الناس ، عندما سأل في ليلة كان يسمر فيها مع ولده وأهله وخاصته ، عن أحسن ما قيل من الشعر ، فأنشدوا وفضلوا ، وقال بعضهم: امرؤ القيس ، وقال بعضهم: النابغة ، وقال بعضهم: الأعشى ، فلما

فرغوا قال: أشعر الناس - والله - من هؤلاء جميعاً الذي قال:... (وأنشد هذه القصيدة) (2).

**الهوامش :**

* معن بن أوس المزني: شاعر فحل، من مخضرمي الجاهلية والإسلام، وهو شاعر مجيد محسن، متين الكلام، حسن الديباجة، فخم المعاني.

كان معاوية يفضل مزينة (قبيلة الشاعر) في الشعر ، ويقول: كان أشعر أهل الجاهلية منهم زهير ، وكان أشعر أهل الإسلام - منهم ابنه كعب ومعن بن أوس.

** الغرض من هذا الشرح فهم القصيدة من أقرب طريق ، والدخول إلى معانيها بعيداً عن الاصطلاحات ، وهو لم يكتب للمختصين ، ولا من في حكمهم ، وإنما كتب لمن لا يعرفون عن الأدب العربي إلا القليل ، نظراً لظروفهم الدراسية أو المعيشية ، وخاصة من هم في ديار الغربة.

1- جانب بيته.

2 - الأمالي 2/99 ، زهر الآداب ، 817.

# الظلم مرتعه وخيم

إعداد. محمد أحمد عبد الله

نـشـرت صحـيـفـة الشرق الأوسط اليومية في عددها الصادر بتاريخ 22 جمادة الآخرة عام 1407 هـ الخبر التالي:

»فرغت لجنة حصر منزل [ رئيس عربي أفريقي سابق ] بمقر القيادة العامة للقوات المسلحة من أعمالها ، وأدلى مصدر موثوق بمعلومات خاصة لـ [الشرق الأوسط] تنشر لأول مرة عن محتويات المنزل ، فأوضح أنها قد وضعت في ثمانية عشر صندوقاً ، يبلغ طول الواحد حوالي ستة أمتار ، وحمولته تحتاج إلى رافعة ، وقال: إن فساتين زوجه قد بلغت 400 فستان ، عدا الفساتين التي لم تستعمل بعد ، إضافة إلى 382 ثوباً و 200 ثوب جديد آخر لم يستعمل ، وأكثر من 300 حذاء، وكميات كبيرة من العطور. وأشار المصدر إلى أن في المنزل محطة أقمار صناعية ، وجهاز التقاط لقنوات التلفزيونات الأجنبية ، وقبانية خاصة ، ومخبأ للطوارئ وسلماً كهربائياً، ومهبطاً لطائرة هليوكبتر ، بالإضافة إلى جهاز تصوير يعمل على التقاط صور الأشخاص الذين يقتربون من المنزل.

وأضاف المصدر بان هناك كميات كبيرة من المسابح ، والحصر ، والأباريق ، مشيراً إلى أن هناك غرفة طبية مجهزة بأحدث الأدوات الطبية ، وكميات كبيرة من الأسلحة والبطاطين والسجاجيد التي لم تستعمل. وقال: بأن هناك كميات من الوثائق الأمنية، والدبلوماسية، موضحاً أن هناك أيضاً عشرين سيفاً من الذهب الخالص ، بالإضافة إلى الدروع ، والأواني الذهبية.

وأضاف: إن مفاتيح المنزل أشبه بمفاتيح قارون -على حد وصف المصدر- من كثرتها ، كما توجد التلفزيونات والفيديوهات بعدد الغرف والصالات«.
ولنا على هذا الخبر الملحوظات التالية:
1- ذكرت صحيفة الشرق الأوسط اسم الرئيس السابق واسم زوجه.. وآثرنا عدم ذكر الاسمين ، تقديراً لمشاعر أهل وأقرباء العائلتين ، ومن جهة ثانية ، فليس المقصود عندنا الاسم ، وإنما المقصود معالجة هذه الظواهر المرضية التي يكثر تكرارها في أماكن متعددة ، مع أننا لم نكن في يوم من الأيام من المعجبين أو المؤيدين لهذا الرئيس.
2- مما ينبغي التأكيد عليه أن الشعب الذي كان يحكمه هذا الرئيس كان - ولا يزال - يعاني مجاعة مات بسببها عدد كبير جداً من الأطفال والشيوخ والنساء ، وقد امتدت يد المحسنين لهذا الشعب من جميع أنحاء العالم.. وبكل أسف لم يكن هذا الرئيس وبطانته أمناء في توصيل المساعدات للمنكوبين الجائعين ، وكان قد زعم ، عندما قام بانقلابه العسكري الذي جاء به إلى الحكم ، أنه جاء ليحقق العدالة الاجتماعية والمساواة بين أفراد شعبه ، ولكن الذي حققه لشعبه: مجاعة وفقراً وظلماً واحتكاراً.
وبدأ الحكم فقيراً لا يملك غير مرتبه، وخرج من الحكم بعدد كبير من ملايين الدولارات، كما تحدثت وكالات الأنباء والصحف العالمية والعربية ، وهذه الملايين مودعة في بنوك أوربا الغربية ، وهذا يعني أن محتوى منزله لا يساوي شيئاً أمام رصيده النقدي في البنوك الغربية ، ومع ذلك فقد كان يتظاهر بالزهد والعفة والورع والتقوى.
3- مصيبة المصائب أن آخر ورقة كان يتاجر بها الرئيس المخلوع هي »تحكيم الشريعة الإسلامية« ، ونصب نفسه خليفة للمسلمين ، وأول القوانين التي وضعها تضمنت عقوبات صارمة ضد الذين يعارضون نظامه ويحاولون الإطاحة به.
وخلال الفترة »الإسلامية المزعومة« كان الرئيس السابق دمية تحركها الولايات المتحدة كما تشاء ، وقد أمرته في أواخر عهده بالحكم أن يخفف من إصدار القوانين الإسلامية فاستجاب ، وأمرته بالبطش بالدعاة الذين كانوا يتعاونون معه ففعل... وأمرته بتدبير هجرة »يهود الفلاشا« إلى فلسطين المحتلة ففعل... وهناك فضائح أخرى ليس هذا موضع الحديث عنها.
4- وهناك سؤال يفرض نفسه بإلحاح: كيف نجمع بين المسابح والحصر والأباريق - وهذا يعني أن الصلاة كانت تقام في قصره - وبين الترف والإسراف اللذين جاوزا كل حد ، لدرجة أن المصدر الذي نقلت عنه الشرق الأوسط قال: »إن مفاتيح المنزل أشبه بمفاتيح قارون.. كيف نجمع بين هذا وذاك؟!.

**وجوابنا على ذلك:**

إن الرئيس السابق كان لا ينكر إعجابه وإيمانه بالصوفية ، وكانت الصحف التي تجري معه مقابلات تنقل عنه مثل هذه التصريحات ، وأكثر من هذا ، فقد كان الرئيس السابق شديد الإيمان بالخرافيين والسحرة والمشعوذين ، وجاء في المذكرات التي كتبها أحد بطانته -من الذين كان يستعين بهم - أموراً في غاية الغرابة.
ومن جهة أخرى فقد أقنعه مساعدوه ومستشاروه بأن للاتجاه الصوفي ثقلاً في بلده ، ويستطيع أن يستعين بهم ضد الدعاة الذين كان يتوجس منهم خيفة.
ومن جهة ثالثة فالصوفيون - عبر شيوخهم - مستعدون لخدمة أمثال هذا الرئيس ، بل وخدمة من هم أشد سوءاً منه ، وتاريخهم الأسود في القديم والحديث يشهد على ذلك ، ومطالبهم بسيطة لا تتجاوز المال والمصالح المحدودة ، وحلقات الرقص والغناء التي يسمونها ذكراً.
وفوق هذا وذاك فقد كان الرئيس المخلوع متناقضاً ، مزاجياً ، محدود المدارك العقلية ، وغير مستبعد أنه ما كان يرى تعارضاً بين التحف التي يملكها ، والمسابح التي يوزعها على شيوخ الصوفية الذين يرتادون قصره.
5- لا أدري كيف يتمادى الظالمون في غيهم وظلمهم.. ولا يفكرون بأوراقهم التي ستكشف، وأستارهم التي سوف تهتك ، وأسرارهم التي سوف تفتضح؟!
وكان هذا الرئيس المخلوع قد نجا من الموت أكثر من مرة ، وتآمر عليه شركاؤه في الحكم ، ومن طبيعة هؤلاء الناس أنهم لا يثقون بمن حولهم من المساعدين والمستشارين والأعوان ، ومن الأدلة على خوفه من سوء المصير وجود مخبأ للطوارىء في قصره..
ومن جهة أخرى فقد ابتلاه الله بعدة أمراض ، والمرض يذكر الإنسان بقرب أجله ، وقصر عمره.. فكيف كان هذا الرجل غير مبال لا يفكر بيوم لا ينفعه فيه قصره ولا ماله ولا حكمه؟!.
لقد نُحي هذا الرئيس عن الحكم ، ومضى إلى حيث يمضي كل ظالم. وإذا كان لابد من نصيحة للدعاة في هذا الموضع فنقول:
لن يشيد أركان هذا الدين إلا رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وصبروا على الأذى والابتلاء ، وجاهدوا في سبيل الله ، وزهدوا في نعيم الدنيا وشهواتها...
أما النكرات ، وأصحاب الأمزجة ، والأهواء والمصالح فنرجوا لهم الهداية ، ونسأل الله أن يرزقهم التوبة وحسن الخاتمة.. وإذا تبدلت أحوالهم فجأة فلا نكذبهم بدون دليل، ولكن لا نثق بهم ، ولا نصفق لهم، ونسارع في التجمع حولهم والاستجابة لأمرهم، إذا طلبوا البيعة لأنفسهم، وزعموا أنهم أصبحوا أئمة وخلفاء في هذه الأرض.
لقد تركت تجربة هذا الرئيس آثارا سلبية استغلها أعداء الإسلام أبشع استغلال ، وبكل أسف لم تكن التجربة الأولى في هذا العصر ، ولكن نرجو أن تكون

التجربة الأخيرة ، ولا يسمح العاملون للإسلام للانتهازين مرة أخرى استغلال الإسلام والمتاجرة به.

# القضاء والقدر ومسئولية الإنسان

الشيخ محمد بن صالح العثيمين

الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ،وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله الله تعالى بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهد في الله حق جهاده ، حتى أتاه اليقين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: في هذه المقالة سنبحث في أمر مهم ، يهم جميع المسلمين ، ألا وهو: قضاء الله وقدره ، الذي ما زال النزاع فيه بين الأمة قديماً وحديثاً ، فقد روي: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خرج على أصحابه وهم يتنازعون في القدر فنهاهم عن ذلك وأخبر أنه إنما أهلك من كان قبلهم هذا الجدال.

ولكن فتح الله تعالى على عباده المؤمنين - السلف الصالح - الذين سلكوا طريق العدل فيما علموا وفيما قالوا ، وذلك أن قضاء الله وقدره هو من مقتضى ربوبيته تبارك وتعالى التي هي أحد أقسام التوحيد الثلاثة التي قسم أهل العلم ألا وهى:

توحيد الألوهية: وهو إفراد الله تعالى بالعبادة.

وتوحيد الربوبية: وهو إفراد الله تعالى بالخلق والملك والتدبير.

وتوحيد الأسماء والصفات: وهو توحيد الله بأسمائه وصفاته.

فالإيمان بالقدر من مقتضى ربوبية الله عز وجل، ولهذا قال الإمام أحمد: القدر قدرة الله، لأنه من قدرته ومن عمومها بلا شك وهو أيضاً سر الله تعالى المكتوم الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وبحمده ؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ في الكتاب المكنون الذي لا يطلع عليه أحد ، ونحن لا نعلم بما قدره الله تعالى لنا أو علينا ، أو بما قدره في مخلوقاته إلا بعد وقوعه أو الخبر الصادق عنه.

إن فرق الأمة - هذه الأمة الإسلامية - انقسموا في القدر إلى ثلاثة أقسام:

فقسم غالوا في إثباته وسلبوا العبد قدرته واختياره ، وقالوا: إن العبد ليس له قدرة ولا اختيار ، إنما هو مسير لا مخير ، ولا فرق بين فعل العبد الواقع باختياره ، وبين فعله الواقع بغير اختياره ، ولا شك أن هؤلاء ضالون ، لأنه مما

يعلم بالضرورة من الدين والعقل والعادة أن الإنسان يفرق بين فعل الاختيار وبين فعل الإجبار.
قسم آخر غالوا في إثبات قدرة العبد واختياره ، حتى نفوا أن يكون لله تعالى مشيئة أو اختيار أو خلق فيما يفعله العبد ، وزعموا أن العبد مستقل بعمله ، حتى غلا طائفة منهم وقالوا: إن الله تعالى لا يعلم ما يفعله العباد إلا بعد أن يقع منهم وهؤلاء أيضاً غلوا وتطرفوا تطرفاً عظيماً في إثبات قدرة العبد واختياره ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق ، وسلك القسم الثالث أهل السنة والجماعة في ذلك مسلكاً وسطاً قائماً على الدليل الشرعي والدليل العقلي، وقالوا: إن الأفعال التي يحدثها الله تعالى في الكون تنقسم إلى قسمين:

**القسم الأول:**

ما يجريه الله تبارك وتعالى من فعله في مخلوقاته لهذا لا اختيار لأحد فيه ، كإنزال المطر وإنبات الزرع وكالإحياء والإماتة والمرض والصحة وغير ذلك من الأمور الكثيرة التي تشاهد في مخلوقات الله ، فإن هذه بلا شك ليس لأحد فيها اختيار وليس لأحد فيها مشيئة ، وإنما المشيئة فيها لله الواحد القهار.

**والقسم الثاني:**

ما يفعله الناس بل ما تفعله الخلائق كلها من ذوات الإرادة فإن هذه - أعني هذه الأفعال - تكون باختيار فاعليها وإرادتهم ؛ لأن الله تبارك وتعالى جعل ذلك إليهم ، قال الله تعالى: ((لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ)) وقال تعالى: ((مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا ومِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ)). والإنسان يعرف الفرق بين ما يقع منه باختيار ، وبين ما يقع منه باضطرار وإجبار ، الإنسان ينزل من السطح في السلم نزولاً اختيارياً يعرف أنه مختار ، ولكنه يسقط هاوياً من السطح ويعرف أنه ليس مختاراً لذلك ، ويعرف الفرق بين الفعلين ، وأن الثاني إجبار والأول اختيار ، وكل إنسان يعرف ذلك ، كذلك الإنسان يعرف أنه إذا أصيب بمرض سلس البول فكان البول يخرج منه بغير اختيار ، وإذا كان سليماً من هذا المرض فإن البول يخرج منه باختياره ، ويعرف الفرق بين هذا وبين هذا ، ، ولا أحد ينكر الفرق بينهما ، وهكذا جميع ما يقع من العبد يعرف فيه الفرق بين ما يقع اختيارياً وبين ما يقع اضطراراً وإجباراً ، بل إن من رحمة الله عز وجل أن من الأفعال ما هو من جنس ما يقع باختيار العبد ولكنه يكتب بغير اختياره ، أي أنه لا يلحقه منه شيء كما في فعل الناسي والنائم ، يقول الله تعالى في قصة أصحاب الكهف: ((ونُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليَمِينِ وذَاتَ الشِّمَالِ)) وهم الذين يتقلبون ولكن الله تعالى نسب الفعل إليه ؛ لأن النائم لا فعل له ولا اختيار له ، فنسب فعله إلى الله عز وجل ، ويقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: " من نسي وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه ؛ فإنما أطعمه الله وسقاه " ،

فنسب هذا الإطعام وهذا الإسقاء إلى الله عز وجل ؛ لأن الفعل وقع منه بغير ذكر فكأنه صار بغير اختياره.
كلنا يعرف الفرق بين ما يجده الإنسان من ألم بغير اختياره ، وما يجده من خفة في نفسه أحياناً بغير اختياره ، ولا يدري ما سببه ، وبين أن يكون الألم هذا ناشئاً من فعل هو الذي اكتسبه أو هذا الفرح ناشئاً من فعل هو الذي اكتسبه ، وهذا الأمر ولله الحمد أمر واضح لا غبار عليه.
إننا لو قلنا بقول الفريق الأول - الذين غالوا في اثبات القدر - لبطلت الشريعة من أصلها، لأنه في الحقيقة إذا قلنا: إن فعل العبد ليس فيه اختيار صار لا يحمد على فعل محمود، ولا يلام على فعل مذموم؛ لأنه في الحقيقة بغير اختياره وبغير إرادة منه ، وعلى هذا فالنتيجة إذاً أن الله تبارك وتعالى يكون ظالماً لمن عصاه إذا عاقبه وعذبه على معصيته ؛ لأنه عاقبه على أمر لا اختيار له فيه ولا إرادة ، وهذا بلا شك مخالف للقرآن صريحاً. يقول الله تبارك وتعالى: ((وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (23) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (25) الَذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي العَذَابِ الشَّدِيدِ (26) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ولَكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (27) قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (28) مَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ ومَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ)) ، فيبين سبحانه أن هذا العقاب منه ليس ظلماً بل هو كمال العدل ؛ لأنه قدم إليهم بالوعيد ، وبين لهم الطرق ، فبين لهم الحق وبين لهم الباطل ، ولكنهم اختاروا لأنفسهم أن يسلكوا طريق الباطل ، فلم يبق لهم حجة عند الله عز وجل. لو قلنا بهذا القول الباطل لبطل قول الله تعالى.
((رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ ومُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ))، فإن الله تبارك وتعالى نفى أن يكون للناس حجة بعد إرسال الرسل ، لأنهم قامت عليهم الحجة بذلك ، ولو كان القدر حجة لهم لكانت هذه الحجة باقية حتى بعد بعث الرسل ؛ لأن قدر الله لم يزل ولا يزال موجوداً قبل إرسال الرسل وبعد إرسال الرسل: إذن فهذا القول تبطله النصوص ويبطله الواقع ، كما فصلنا في الأمثلة السابقة.
أما من غالوا في إثبات فعل العبد وأنه مستقل به فإن هؤلاء أيضاً ترد عليهم النصوص والواقع ، ذلك لأن النصوص صريحة في أن مشيئة الإنسان تابعة لمشيئة الله عز وجل ((لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (28) ومَا تَشَاءُونَ إلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ (29) )) ، ((ورَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ويَخْتَارُ)) ، ((واللَّهُ يَدْعُو إلَى دَارِ السَّلامِ ويَهْدِي مَن يَشَاءُ إلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)) ، والذين يقولون بهذا القول هم في الحقيقة مبطلون لجانب من جوانب الربوبية ، وهم أيضاً مدعون بأن في ملك الله تعالى ما لا يشاء ولا يخلقه ، والله تبارك وتعالى شاء لكل شيء ، خالق لكل شيء ، مقدر لكل شيء، وهم أيضاً مخالفون لما يعلم بالاضطرار من أن الخلق كله ملك لله عز وجل ، ذواته وصفاته لا فرق بين الصفة وبين الذات، ولا بين المعنى وبين الجسد، إذن فالكل لله عز وجل ، ولا

يمكن أن يكون في ملكه ما لا يريده تبارك وتعالى، ولكن يبقى علينا إذا كان الأمر راجعاً إلى مشيئة الله تبارك وتعالى وأن الأمر كله بيده. فما طريق الإنسان إذن وما حيلة الإنسان إذا كان الله تعالى قد قدر عليه أن يضل ولايهتدي؟ نقول - الجواب عن ذلك -: إن الله تبارك وتعالى إنما يهدي من كان أهلاً للهداية ، ويضل من كان أهلاً للضلالة ؛ يقول الله تبارك وتعالى: ((فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)) ، ويقول تعالى: ((فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ونَسُوا حَظاً مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ)).
فبين الله تبارك وتعالى أن أسباب إضلاله لمن ضل إنما هو بسبب من العبد نفسه ، والعبد كما أسلفنا قريباً لا يدري ما قدر الله له ؛ لأنه لا يعلم بالقدر إلا بعد وقوع المقدور فهو لا يدري هل قدر الله له أن يكون ضالاً، أم أن يكون مهتدياً ، فما باله يسلك طريق الضلال، ثم يحتج بأن الله قدر له ذلك ، أفلا يجدر به أن يسلك طريق الهداية ثم يقول: إن الله تعالى قد هداني للصراط المستقيم، أيحق له أو أيجدر به أن يكون جبرياً عند الضلالة، وأن يكون قدرياً عند الطاعة؟! كلا لا يليق بالإنسان أن يكون جبرياً عند الضلالة والمعصية، فإذا ضل أو عصى الله قال: هذا أمر كتب عليّ ، وقدر عليّ ، ولا يمكنني أن أخرج عما قضى الله وقدر ، وإذا كان في جانب الطاعة ووفقه الله تعالى للطاعة والهداية زعم أن ذلك منه ، ثم منَّ به على الله وقال: أنا أتيت به من عند نفسي فيكون قدرياً في جانب الطاعة ويكون جبرياً في جانب المعصية. هذا لا يمكن أبداً؛ فالإنسان في الحقيقة له قدرة وله اختيار ، وليس باب الهداية بأخفى من باب الرزق وبأخفى من أبواب طلب العلم ، والإنسان نحن نعرف جميعاً أنه قد قدر له ما قدر من الرزق ومع ذلك هو يسعى بأسباب الرزق ، يسعى بها في بلده وخارج بلده ويميناً وشمالاً ، ليس يجلس في بيته ويقول: إن قدر لي رزق فإنه يأتيني ، تجده يسعى بأسباب الرزق مع أن الرزق نفسه مقرون بالعمل ، كما ثبت عن النبيّ - صلى الله عليه وسلم - من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه -: "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد ".
هذا الرزق أيضاً مكتوب كما أن العمل من صالح أو سيئ مكتوب ، فكذلك الرزق فما بالك أنت تذهب يميناً وشمالاً وتجوب الأرض والفيافي لطلب الرزق ولا تعمل عملاً صالحاً لطلب رزق الآخرة بدار النعيم ، إن البابين واحد وليس بينهما فرق ، فكما أنك تسعى لرزقك ، وتسعى لحياتك وامتداد أجلك ، إذا مرضت بمرض ذهبت إلى أقطار الدنيا تريد الطبيب الذي يداوي مرضك ومع ذلك فإن لك ما قدر من الأجل لا يزيد ولا ينقص، لست تصمت على هذا وتقول: سأبقى في بيتي مريضاً طريحًا ، وإن قدر الله لي أن يمتد الأجل امتد ، نجدك تسعى بكل ما تستطيع من قوة وبحث لتبحث عن الطبيب الذي ترى أنه أقرب الناس إلى أن يقدر الله الشفاء على يديه ، إذاً لماذا لا يكون

طريقك في عمل الآخرة وفي العمل الصالح كطريقك فيما تعمل للدنيا ، وقد سبق أن قلنا: إن القضاء سر مكتوم لا يمكن أن تعلم عنه ، فأنت الآن بين طريقين: طريق يؤدي بك إلى الفوز والسلامة ، وطريق يؤدي بك إلى الهلاك والعطب ، وأنت الآن واقف بينهما ومخير ليس أمامك من يمنعك من هذا الطريق اليمين ، ولا من هذا الطريق الشمال ، وإذا شئت ذهبت إلى هذا ، وإذا شئت ذهبت إلى هذا ، فما بالك تسلك الطريق الشمال ثم تقول: إنه قد قدر عليّ ، أفلا يليق بك أن تسلك طريق اليمين وتقول: إنه قد قدّر لي ، لو أنك أردت السفر إلى الرياض ، وكان أمامك طريقان ، أحدهما معبد قصير ، والثاني غير معبد وطويل لوجدنا أنك تختار المعبد القصير المستقيم ، ولا تذهب إلى الطريق الذي ليس بمعبد وليس بمستقيم ، هذا الطريق الحسي إذن، فالطريق المعنوي موازن له ولا يختلف عنه أبداً ، ولكن النفوس وأهواءها هي التي تتحكم في العقل وتغلب على العقل ، والمؤمن ينبغي أن يكون عقله غالباً على هواه ، وهو إذا حكم عقله فالعقل بالمعنى الصحيح يعقل صاحبه عما يضره ويدخله فيما ينفعه ويسره.
بعد هذه المقدمة التي تبين لنا أن الإنسان يسير في عمله الاختياري سيراً اختيارياً ليس إجبارياً ولا اضطرارياً ، وأنه كما يسير لعمل دنياه سيراً اختيارياً، وهو إن شاء جعل هذه السلعة تجارته أو السلعة الأخرى أو الثالثة أو الرابعة ، فكذلك أيضاً هو في سيره إلى الآخرة يسير سيراً اختيارياً ، بل إن طريق الآخرة أبين بكثير من طريق الدنيا ، لأن الذي بيّن طريق الآخرة هو الله تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، فلا بد أن تكون طرق الآخرة أكثر بياناً وأجلى وضوحاً من طرق الدنيا ، ومع ذلك فإن الإنسان يسير في طرق الدنيا التي ليس ضامناً لنتائجها.. ويدع طريق الآخرة التي نتائجها مضمونة ؛ لأنها ثابتة بوعد الله ، والله تبارك وتعالى لا يخلف الميعاد.

**بعد هذه المقدمة نقول:**

إن أهل السنة والجماعة قرروا هذا وجعلوه عقيدتهم ومذهبهم. إن الإنسان يفعل باختيار وإنه يسير كما يريد ، ولكن إرادته واختياره تابعة لإرادة الله ومشيئته ، ثم يؤمن أهل السنة والجماعة بأن مشيئته تعالى تابعة لحكمته ، وأنه سبحانه وتعالى ليست مشيئته مشيئة مطلقة مجردة ، ولكنها مشيئة تابعة لحكمته ؛ لأن من أسماء الله تعالى: ((الحكيم)) ، والحكيم هو: الحاكم المحكم الذي يحكم الأشياء كوناً وشرعاً ويحكمها عملاً وصنعاً ، والله تعالى بحكمته يقدر الهداية لمن أرادها ، لمن يعلم سبحانه وتعالى أنه يريد الحق وأن قلبه يريد الاستقامة ، ويقدر الضلالة لمن لم يكن كذلك ، لمن إذا عرض عليه الإسلام يضيق صدره كأنما يصعد في السماء ، فإن حكمة الله تبارك وتعالى تأبى أن يكون هذا من المهتدين ، إلا أن يجدد الله له عزماً ويقلب إرادته إلى

إرادة أخرى ، فالله تعالى على كل شيء قدير ، ولكن حكمة الله تأبى إلا أن تكون الأسباب مربوطة بها مسبباتها.

**يقول أهل السنة والجماعة: إن قضاء الله وقدره أربع مراتب:**

**المرتبة الأولى: مرتبة العلم:**

وهى أن يؤمن الإنسان إيماناً جازماً بأن الله تبارك وتعالى بكل شيء عليم ، وأنه يعلم ما في السموات وما في الأرض جملة وتفصيلاً ، سواء كان ذلك من فعله أو من فعل المخلوقات ، وأنه لا يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السماء.

**وأما المرتبة الثانية: فهي مرتبة الكتابة:**

وهي أن الله تبارك وتعالى كتب عنده في اللوح المحفوظ مقادير كل شيء ، وقد جمع الله بين هاتين المرتبتين في قوله: ((أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)). فبدأ بالعلم وقال: إن ذلك في كتاب ، وهو مكتوب في اللوح المحفوظ كما جاء في الحديث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " إن أول ما خلق الله القلم ، قال: اكتب ، قال: ربي ، ماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة ". ولهذا سئل النبي صلى الله عليه وسلم -: عما نعمله، أشيء مستقبل أم شيء قد قضي وفرغ منه. فقال: " إنه قد قضي" قالوا: يا رسول الله، أفلا ندع العمل ونتكل؟ قال: " اعملوا فكل ميسر لما خلق له ". فقال لهم الرسول - صلى الله عليه وسلم -: "اعملوا". فأنت يا أخي اعمل ؛ فأنت ميسر لما خلقت له. ثم تلا قوله تعالى: ((فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى واتَّقَى (5) وصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وأَمَّا مَنْ بَخِلَ واسْتَغْنَى (8) وكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)). هاتان المرتبتان: العلم والكتابة.

**أما المرتبة الثالثة: فهى مرتبة المشيئة:**

بمعنى: أن الله تبارك وتعالى شاء لكل موجود أو معدوم في السموات أو في الأرض ، فما وجد موجود إلا بمشيئة الله ، ولا عدم معدوم إلا بمشيئة الله ، وهذا ظاهر في القرآن الكريم ، وقد أثبت الله تعالى مشيئته في فعله ، ومشيئته في فعل العباد ؛ فقال الله تعالى: ((لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (28) ومَا تَشَاءُونَ إلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ)). وقال تعالى: ((ولَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ)) ((ولَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ)) أية أخرى ، وقال تعالى: ((ولَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا ولَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)) ، فبين تعالى أن فعل الناس كائن بمشيئته ، وأما فعله تعالى فتعليقه بالمشيئة كثير ، قال الله تعالى: ((ولَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا))، ((ولَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً)). إلى آيات كثيرة تثبت المشيئة في فعله تبارك وتعالى ، فإذن لا يتم الإيمان بالقدر إلا أن نؤمن بأن

مشيئة الله عامة وشاملة لكل موجود أو معدوم فما من معدوم إلا وقد شاء الله عدمه ، وما من موجود إلا قد شاء الله تعالى وجوده ولا يمكن أن يقع شيء في السموات ولا في الأرض إلا بمشيئة الله.

**المرتبة الرابعة: مرتبة الخلق:**

أي أن نؤمن بأن الله تعالى خالق كل شيء فما من موجود في السموات والارض إلا الله خلقه ، حتى الموت يخلقه الله تبارك وتعالى ، وإن كان هو عدم الحياة ، يقول تعالى: ((الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ والْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً )) ، فكل شيء في السموات أو في الأرض فإن الله تعالى خالقه ، ولا خالق إلا الله ، وكلنا يعلم أن ما يقع من فعله تعالى فإنه مخلوق له ، فالسموات والأرض والجبال والأنهار والشمس والقمر والنجوم والرياح كلها نعرف أنها مخلوقة من مخلوقات الله ، وكذلك ما يحدث لهذه المخلوقات من صفات وتقلبات، أحوال كلها مخلوقة لله عز وجل ، ولكن قد يشكل على المرء كيف يصح أن نقول في فعلنا وقولنا الاختياري: إنه مخلوق لله عز وجل ، نقول: نعم ، يصح أن نقول ذلك ؛ لأن فعلنا وقولنا ناتج عن أمرين، أحدهما: القدرة ، والثاني: الإرادة ، فإذا كان فعل العبد ناتجاً عن إرادته وقدرته فإن الذي خلق هذه الإرادة ، وجعل قلب الإنسان قابلاً لهذه الإرادة هو الله عز وجل ، وكذلك أيضاً الذي خلق فيه القدرة هو الله عز وجل ، ويخلق السبب التام الذي يتولد عنه المسبب ، نقول: إن خالق السبب التام خالق للمسبب. أي أن خالق المؤثر خالق للأثر ، خالق السبب خالق للمسبب ، فوجه كونه تعالى خالقاً لفعل العبد نقول: إن فعل العبد وقوله ناتج عن أمرين هما: الإرادة ، والقدرة ؛ لولا الإرادة لم يفعل ، ولولا القدرة لم يفعل ؛ لأنه إذا أراد وهو عاجز لم يفعل ، وإذا كان قادراً ولم يرد لم يكن الفعل ، فإذا كان الفعل ناتجاً عن إرادة جازمة وقدرة كاملة ، فالذي خلق الإرادة الجازمة والقدرة الكاملة هو الله ، وبهذا الطريق عرفنا كيف يمكن أن نقول: إن الله تعالى خالق لفعل العبد ، وإلا فالعبد هو الفاعل في الحقيقة فهو المتطهر، وهو المصلي ، وهو الصائم ، وهو المزكي ، وهو الحاج ، وهو المعتمر ، وهو العاصي ، وهو المطيع ، ولكن هذه الأفعال كلها كانت وجدت بإرادة وقدرة مخلوقتين لله عز وجل ، وبهذا علم كيف يكون الإنسان، وكيف يكون فعل الإنسان مخلوقاً لله عز وجل. والأمر - ولله الحمد - واضح ، ولولا أن التساؤلات كثرت، ولولا أن الأمر اشتبه على كثير من الناس لكنا نقول: إن الخوض في هذا ، نوع من فضول القول ، ولكن نظراً إلى أن الأهواء انتشرت وكثرت ، وصار الفاسق يريد أن يبرر فسقه بشيء يقدره في ذهنه ، ولو تدبر الأمر لوجد أنه على خلاف ما قدره في ذهنه ، لولا هذا ما تكلمنا في هذا الأمر.

إذن القدر والإيمان بالقدر يكون له مراتب أربع ، المرتبة الأولى: العلم ، والثانية: الكتابة ، والثالثة: المشيئة ، والرابعة: الخلق ، كل هذا يجب أن يثبت

لله عز وجل ، وهذا لا ينافى أن يضاف الفعل إلى فاعله من ذوي الإرادة ، كما أننا نقول: النار تحرق ، والذي خلق الإحراق فيها هو الله بلا شك، ليست محرقة بطبيعتها ، بل هي محرقة بكون الله تعالى جعلها محرقة ، ولهذا النار التي ألقي فيها إبراهيم لم تكن محرقة ؛ لأن الله تعالى قال لها: ((كُونِي بَرْداً وسَلاماً عَلَى إبْرَاهِيمَ)) ، فكانت برداً وسلاماً على إبراهيم ، فالنار لذاتها لا تحرق ، ولكن لأن الله خلق فيها قوة الإحراق ، قوة الإحراق هي مقابل فعل العبد ، كإرادة العبد وقدرته ، فبالإرادة والقدرة يكون الفعل ، وبالمادة المحرقة في النار يكون الإحراق فلا فرق بين هذا وهذا ، ولكن العبد لما كان له إرادة وشعور واختيار وعقل صار الفعل ينسب إليه حقيقة وحكماً، وصار مؤاخذاً بالمخالفة ، معاقباً عليها ؛ لأنه يفعل باختيار ويدع باختيار ، وأخيراً نقول: إن على المؤمن أن يرضى بالله تعالى رباً ، ومن تمام رضاه بالربوبية أن يؤمن بقضائه وقدره ، ويعلم أنه لا فرق في هذا بين الأعمال التي يعملها وبين الأرزاق التي يسعى لها ، وبين الآجال التي يدافعها ، الكل بابه سواء، والكل مكتوب ، والكل مقدر ، والإنسان ميسر لما خلق له..

وأسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم ممن يُيَسَّرون لعمل أهل السعادة ، وأن يكتب لنا ولكم الصلاح في الدنيا والآخرة ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

## خواطر في الدعوة

# بين الدفاع والأصالة

محمد العبدة

لا يـزال بـيـن المـسـلـمـين الـيـوم مـن يـعـيـش بعـقـلـيـة الأربعينات والخمسينات، حـيـن كانت الهجمة على الإسلام والمسلمين على أشدها, وكـان الـذي يـتـولى كـبـرها المستشرقون والمبشرون والأحزاب العلمانية ، وكان موقف كثير من المسلمين هو موقف المدافع عن نفسه دفاع المتهم الذي بداخله شيء من الانهزامية ، أو عنده عقدة نقص تجاه كل ما يأتى من الغرب أو الشرق أو من الأحزاب التي تسمي نفسها: (تقدمية).

يومها قالوا عن الإسلام: إنه استبدادي النزعة ، فرد عليهم البعض بأنه (ديمقراطي) فيه كل مبادئ الديموقراطية ، وقالوا: إن بلاد الإسلام فتحت بالسيف والقوة ، وأن المسلمين كانوا أصحاب ولوغ في الدماء، فقيل لهم: لا.. إننا لا نهاجم أحداً ولا نفتح البلدان ، بل ندافع عن أنفسنا فقط إذا ما هوجمنا من الخارج ، وها هي بلاد أندونيسيا وماليزيا ، ودول وسط أفريقيا قد دخلها الإسلام بواسطة التجارة أو الدعاة.

وقيل عن تعدد الزوجات والطلاق ومشاكل المرأة الكثير الكثير.. وكتبت المجلدات ، وحررت المقالات في الرد على هذه الاتهامات ولكن بمنطق

المنهزم أمام هذا الهجوم الماكر ، وكان الرد أن التعدد فقط للضرورة ، وأن الإسلام أعطى كل شيء للمرأة وأنها نصف المجتمع.. الخ. هذا الكلام الذي بعضه صحيح وبعضه خطل.
ولا يزال المسلمون - ممن يعيشون بيننا - إذا عرضوا الإسلام على الآخرين يعرضونه على استحياء. وقد يتكلم أحدهم عن تقارب الأديان إذا ما دخل في مناقشة مع نصراني مثلاً ، أو أن الإسلام لا يكره أو يحرم بعض الأشياء المكروهة أو المحرمة فعلاً .. إذا ما دخل في جدال مع أصحاب الترخص والتساهل.
هذا الموقف الضعيف ، كنا نعتقد أنه انتهى أو يجب أن ينتهي ولا حاجة لإعادة الردود واجترار هذه الأشياء ، لقد انتقل المسلمون إلى الشعور بالثقة وبالأصالة وبموقف المهاجم وليس المدافع ، وقد كان للعلماء والدعاة في هذا العصر أثر في توليد هذه الثقة ، ومن أبرزهم: الداعية الشهيد سيد قطب - رحمه الله -، ولكن سمعت وقرأت أخيراً لبعض الإسلاميين في موضوع الأسرة والمرأة ما يعود بنا القهقري إلى الوراء ، وكأننا متهمون بظلمها ، ومتهمون بأننا لا نعطيها الحرية التي يريدها أعداء الإسلام ، فيقدم طيبوا القلب ليعطوها أكثر مما جبلت عليه وخلقت له ، ونحن ليس عندنا مشكلة اسمها مشكلة المرأة ، فالله سبحانه خلق الخلق لعبادته وكل ميسر لما خلق له ، وكل له مهمة في هذه الحياة ورحم الله امرأً عرف قدر نفسه ، أما معاكسة الفطرة التي خلق الله الخلق عليها فسيكون من بعدها الدمار.
أما الموضوع الآخر الذي يخجلون منه فهو الجهاد ، وينسون أنه ذروة سنام الإسلام ، وقد شرعه الله لنا وحضنا عليه ، وهو من خصائص هذه الأمة ، وهو جزء من الدعوة ، وبالجهاد والفتح يتعرف الناس على الإسلام عملياً ونظرياً. فهو رحمة وليس قسراً ، وأكثر البلاد الإسلامية اليوم فتحت بالجهاد ، فهل نخجل من شرع شرعه الله لنا ، والناس يفتخرون بزبالة أفكار ماركس وأمثاله.
إن القرآن الكريم علمنا كيف نرد على الكفار اتهاماتهم وكيف نهاجمهم بدل أن نضع أنفسنا في قفص الاتهام. قال تعالى راداً على قريش قولها: إن المسلمين انتهكوا حرمة الشهر الحرام وقتلوا وأسروا - وقد وقع هذا في سرية عبد الله بن جحش عندما أرسله رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في مهمة استطلاعية للتعرف على أحوال مكة وما حولها - قال تعالى: ((يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وكُفْرٌ بِهِ والْمَسْجِدِ الحَرَامِ وإخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ والْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ...)) الآية [البقرة:217].
ومعنى الآية: إذا كان القتال في الشهر الحرام كبيراً فعلاً ولا يجوز فأنتم فعلتم أكبر من هذا ، أخرجتم المسلمين من البلد الحرام ، بل فعلتم ما هو أشنع وهو الكفر بالله ، والصد عن سبيله ، وفتنة المؤمنين عن دينهم ، هذا هو أدب

القرآن في مناقشة الخصوم ، ولكن بعض الناس يحرفون النصوص الواضحة كي لا يغضب غير المسلمين وحتى نظهر أننا في غاية التهذب والرقة والمسكنة!!.
سبحانك هذا بهتان عظيم.

# تركيا المسلمة تتحدى أتاتورك

إعداد. محمد أحمد عبد الله

أراد كمال أتاتورك قبل ستين عاماً أن تكون تركيا دولة علمانية ، لا تدين بدين من الأديان.. وكان بعمله هذا ينفذ مؤامرة يهودية صليبية خطط لها قبل عدة قرون ، وتحطمت مخططاتهم طوال تلك المدة حتى جاء اليهودي »أتاتورك« وتستر وراء شعارات كاذبة ، كالتقدمية ، والقومية ، والتحضر ، وفي غيبة الوعي الإسلامي، وغيبة الرجال الأفذاذ الذين يتجمعون على الحق ، ويعرفون كيف يحبطون مؤامرات ومكائد العدو.. أقول في غيبة هؤلاء الرجال أقدم أتاتورك وزبانيته على هدم الخلافة الإسلامية ، واستبدال الحروف العربية بحروف لاتينية ، وأمر الناس بحلق لحاهم ، كما أمر النساء بخلع الحجاب ، ونكل بالعلماء والدعاة إلى الله ، ومنع الأذان بالعربية ، وبعد هلاك الطاغية كمال أتاتورك سار إخوانه وتلامذته من الاتحاديين وقادة الجيش وصنائع الغرب على نهجه..
وظن الطغاة أنه لن تقوم للإسلام قائمة في تركيا المسلمة بعد الآن ، ولكن الله سبحانه وتعالى أبطل كيدهم وأضل سعيهم.
ويحدثنا القادمون من تركيا عن مظاهر طيبة يرونها تثلج صدور المؤمنين وتبعث الأمل في النفوس.. يحدثنا القادمون عن تمسك الشباب بدينهم ومحافظتهم على صلاة الجماعة في المساجد ، وعن التزام الفتيات بالحجاب الإسلامي في الجامعات والمعاهد ، كما يحدثنا القادمون عن عواطف الأتراك الجياشة نحو إخوانهم العرب الذين يزورون تركيا ، وبشكل أخص الملتحين منهم الذين يترددون على المساجد.
وباتت اللحية والحجاب من أشد المخاطر التي تهدد زبانية أتاتورك ، وقد صدرت الأوامر بمنع الحجاب في الجامعات التركية ، بل ومن شروط الالتحاق بالجامعة حلق اللحى بالنسبة إلى الرجال ، ووجوب سفور الفتيات ، وقد واجه المسلمون هذه الظواهر الخطيرة بحزم وقوة ، ولنترك المجال لصحيفة »ديرشبيجل الألمانية« الصادرة في أوائل شهر فبراير الماضي تتحدث عن الصحوة الإسلامية في تركيا تحت عنوان »إنهم يتحدون أتاتورك«.
»إن موجة التجديد الإسلامي باتت تتحدى تراث أتاتورك ، وقالت سعاد مير الطالبة في الاستشراق التركي ، بجامعة اسطنبول: (إن الله أمرنا بتغطية الرأس ، ولا يجوز أن يظهر غير الوجه والقدمان وكفا اليد ، ولهذا السبب من

واجبنا الديني أن نضع غطاء الرأس ، وفي حال حظره علينا سوف أغادر الجامعة). وانبرت صديقتها حنيفة أوجلو ، الطالبة في الفلسفة لتأييدها بالقول: إني أحب الدراسة لكن إذا منع غطاء الرأس يجب أن أمضي في سبيلي.
إن الشابات التركيات ساخطات على مرسوم منع الحجاب وغطاء الرأس في حرم 28 جامعة تركية ، وابتداء من أول هذا العام ، ولا يسمح للطلبة الذكور بولوجها بلحية ؛ لأن هذه علامة ظاهرة على التزمت الديني الإسلامي.
وكل من يخالف هذا المنع يتلقى إنذاراً في البداية ، ثم يحظر عليه حضور المحاضرات الجامعية ، ويفصل من الجامعة.
ويستند المرسوم الجديد لقرار من المحكمة الإدارية العليا مفاده أن التحجب بكل أنواعه مخالف للدستور ؛ لأنه موجه ضد النظام الاجتماعي العلماني للجمهورية التركية.
وقد اعترف الرئيس التركي كنعان إفرين بانتشار الحجاب واللحية في الجامعات يقول: »توجد أصولية في تركيا هي خطرة على جمهوريتنا العلمانية مثل الشيوعية والفاشية«..
وقد اتضحت عودة الروح الدينية إلى تركيا المسلمة بمعدل 99 بالمائة من سكانها عندما تظاهر خمسة آلاف شخص بعد صلاة الجمعة في جامع بايزيد في اسطنبول في منتصف الشهر الماضي ، وهتفوا من أجل (تركيا إسلامية) وحملوا على أكتافهم نجم الدين أربكان رئيس حزب الخلاص الوطني. إن المطالبة بإعادة الدولة الدينية تستهدف صرح تركيا الحديثة التي أسسها كمال أتاتورك عندما فصل بلاده عن الماضي العثماني لكي تلحق بركاب العالم (الحديث) ، فألغى الخلافة ، وفصل الدولة عن الدين ، واستعاض عن الخط العربي بالحروف اللاتينية ، وقام بثورة ثقافية ، وفرض تحديثاً متطرفاً قضى على الحجاب واللحية والطربوش الذي كان إلزامياً لكل موظفي الدولة. ومنذ ذلك الحين يعتبر الجيش نفسه حارساً لتراث الرفيق العسكري أتاتورك ، وكلما ساوره الظن بأن الدولة والدستور في خطر استولى على الحكم ، وأعاد النظام إلى النصاب الذي يفهمه هو.
لكن العسكريين بالذات ساعدوا التجديد الإسلامي هذه المرة على الظهور الحاسم عندما وافقوا عام1982 على بند دستوري أوكل إلى الدولة الإشراف على تعليم الدين للمرة الأولى منذ أتاتورك ، وسرعان ما شقت الروح الدينية المكبوتة طريقها وزاد عدد المعاهد الدينية من اثنين عام 1980، إلى ثمانية معاهد . وتريد حكومة تورجوت أوزال المحافظة إنفاق 80 مليون دولار هذا العام على تدريس القرآن الكريم ، وينبغي منذ بداية الشهر القادم أن يرتاد الأطفال المسيحيون أيضاً دروس الدين الإسلامي ، وبعد أتاتورك بستة عقود زمنية يتبين الآن أن مؤسس تركيا الحديثة استخـف بمتطلبات شعبه الدينية ، وقد حقق المثقفون الأتراك اللحاق الفكري بأوربا لكن جماهير الشعب لم تستطع اللحاق بهم ، وقامت العلمانية في تركيا فوق فراغ أدى في السنوات

الأولى للجمهورية إلى أزمة في الهوية ، بسبب رفض الفكر الإسلامي المتراكم ؛ لأن الإسلام كان جزءاً جوهرياً من تفهم الذات التركية ، فالشعر والفولكلور متطبعين ببيئة إسلامية ، والموسيقى ظلت شرقية ، وقوانين الآداب والأعراف بقيت إسلامية، ولاسيما في الأرياف.
إن دور رئيس الحكومة في الخلاف حول تراث أتاتورك العلماني هو على الأقل موضع شك ، فهو ينكر وجود رجعية إسلامية على الرغم من أنها ملموسة في كل مكان من البلاد. وهو نفسه مسلم متعبد وكان المعلمون في دروس القرآن يلقنون الأطفال بأن الصداقة بين الفتيات والفتيان من الموبقات التي تسد باب الجنة.
ويرفض موظفو الوزارات الصعود في مصعد كهربائي واحد مع نساء داخل مباني حكومية ، فهذا أيضاً خطيئة في نظر الأصوليين. وفى غضون شهر رمضان لا يوجد في الوزارات والدوائر طعام وشاي وقهوة ، وقد وافقت الحكومة على مبلغ من المال لبناء جامع في الحديقة أمام البرلمان ليقوم من يريد من النواب بتأدية الصلاة فيه ، وكان النواب المتدينون في زمن أتاتورك يتسللون إلى غرف منزوية للصلاة. إن عدد الجوامع في البلاد ازداد بأكثر من من ثلاثة أضعاف في العقود الأخيرة وارتفع إلى 72 ألف جامع وهناك أكثر من 600 قرية بدون مدارس لكن في كل واحدة منها جامع خاص بها. وقد أصبح تعلم مهنة إمام أو خطيب في الجامع مرغوباً فيه بشكل لا مثيل له. وكان 4200 طالب فقط يتعلمون هذه المهنة في 19 مدرسة عام 1961 ، فقفز عددهم إلى229 ألف طالب في 716 مدرسة عام 1985. ولم يعد الجيش نفسه في مأمن من العدوى الإسلامية ، ففي جامعة أضنة كشف الرئيس إفرين النقاب مؤخراً أمام الطلبة عن تسريح 96 طالباً من معهد الضباط بسبب ميول دينية متطرفة كانوا بين 813 طالباً من أفقر فئات الشعب في المعهد ، وفسر إفرين هذا التشريب الديني بأبعاده المتفشية على نطاق واسع بين العوائل الفقيرة التي ترسل الأبناء الأذكياء إلى مدارس ومعاهد دينية حيث يتلقون العلم والمأوى مجاناً ، وحذر إفرين بقوله: إذا لم تطفأ النار في وقت مبكر فإن من الممكن أن يلتهم الحريق الدار كلها.
وهذا هو رأي عسكريين قياديين منذ أمد قصير ، وقد اجتمع الجنرالات الأعضاء في مجلس الأمن القومي لتركيا مؤخراً في نادي الجيش بأنقرة ، وكانوا يرتدون ملابس مدنية ، وحرروا برئاسة رئيس هيئة الأركان العام " نجدات أورك " رسالة تحذير موجهة إلى قيادة الدولة جاء فيها:
إن القوات المسلحة قلقة للغاية من زحف الأصوليين المسلمين وتتوقع أن يتم بسرعة وقف الرجعية الدينية المتنامية. ووجه أورك تحذيراً لا التباس فيه إلى الشعب بقوله: (توجد في هذه البلاد قوانين وحكومة ودستور وجيش يعرف ما ينبغي القيام به).

إن ما يفهمه الجنرالات الأتراك كواجب عليهم قد أظهروه عام 1960 و1971 و1980 ؛ فقد تسلموا السلطة المدنية بأيديهم وعطلوا الدستور ، وفعلاً ، تتهامس الأوساط السياسية في تركيا حول تكهنات بانقلاب عسكري قريب ، ويتناقل الناس في كل مكان بهمس ( إن الجزمات العسكرية تمسح الآن ثانية في الثكنات لكي يتم الزحف على الحكم دون عوائق ).

وإذا كان القادة العسكريون يهددون بانقلاب جديد يقتلع البرلمان ، ويحكمون البلاد من خلال قانون الطوارئ.. فهذه الأساليب لا تخيف الدعاة الصادقين ولا ترهبهم.. ومنذ ستين عاماً والانقلابات العسكرية مستمرة ، والهيمنة لقانون الطوارئ ،ومع ذلك فقد عاد الناس إلى كنف ربهم ، وأعرضوا أشد الإعراض عن أتاتورك ودينه ودستوره ، والجيش الذي يستخدمه الطغاة هو من هذا الشعب المسلم ، وسوف يختار أخيراً الإسلام وينهض من سبات نومه ، ولن ينسلخ الابن عن أبيه وأمه وإخوانه وأساتذته.

أما قول الرئيس التركي: [اذا لم تطفأ النار في وقت مبكر ، فإن من الممكن أن يلتهم الحريق الدار كلها] وقوله أيضاً: [توجد أصولية في تركيا هي خطرة على جمهوريتنا مثل الشيوعية والفاشية]. فالخطر كل الخطر في بعد تركيا عن الإسلام واستبداله بدين جديد اسمه العلمانية ، وفي ظل هذا الدين الجديد أصبحت تركيا محمية من محميات الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن كانت أكبر دولة في العالم ، وكان الغرب والشرق يرتعد خوفاً وهلعاً من السلاطين الأتراك الذين كانوا يفتحون البلدان ، وينشرون الإسلام ، ويحطمون الطغيان.

والذي ننصح به إخواننا في تركيا أن يستفيدوا من أخطاء إخوانهم في بقية البلدان الإسلامية ، وأن لا يستدرجوا إلى معارك جانبية تستنزف طاقاتهم.. وليحذروا أشد الحذر من الباطنية ودعاتها وأجهزة إعلامها ، ويبدو أن مجلة "دير شبيجل" قد اعتمدت على مصادر باطنية أو على مصادر متعاونة مع الباطنيين ، وليستعرضوا تاريخنا القديم والحديث أو على الأقل تاريخ تركيا منذ عدة قرون ، وسوف يعلمون أن هؤلاء الباطنيين كانوا يتحالفون مع كل عدو كافر ضد تركيا المسلمة ، والتاريخ يعيد نفسه ، والباطنيون لا يقبلون أن تعود تركيا كما كانت دولة مسلمة قوية تدافع عن الإسلام والمسلمين.. وكل الذي يبحثون عنه أن يبثوا سمومهم في هذا البلد الطيب ، ويجندوا ضعاف النفوس ليقيموا حلفاً بينهم وبين غلاة الباطنية في تركيا ، ويكون هذا الحلف المشبوه ستاراً لنشر أفكارهم وتفريق الصف الإسلامي..

ونعتقد أن المحاولات التي بذلوها ، والفتن التي روجوها خلال عدة سنين كافية للاقتناع لمواجهة هذا الأخطبوط الباطني ، فليراجع إخواننا الدعاة في تركيا حساباتهم ، وعندئذ سيعلمون صدق وأهمية ما ننصحهم به.

# تعريف الملأ في الفكر الإسلامي
# (من صفات الملأ)

عثمان جمعة ضميرية

لو عدنا إلى القرآن الكريم، وتتبعنا الآيات الكريمة، التي يتحدث الله تعالى فيها عن أولئك الملأ ومواقفهم من الأنبـيـاء، عليهم الصلاة والسلام، لوضـعـنا أيـديـنا على مفـتاح شخصية أولئك الملأ وتعرفنا عـلـى صفاتهم، وسنشير فيما يلي إلى أهم هذه الصفات ، ولعلّ الحديث - فيما يأتي - عن وسائــل الـملأ في محاربتهم لدعوة الرسل والصَّد عنها ، يعطينا ملامح أخرى لشخصية الملأ وصفاتهم أيضاً.

## أولاً - الملأ يستكبرون في الأرض بغير الحق:

وتلك شنشنة قديمة نعرفها من الملأ، الذين نصبوا أنفسهم دعاة للضلال والصد عن الدعوة ولمعاداة الأنبياء والكفر بهم ، فقد أخذتهم ، العزة بالإثم عندما بعث الله تعالى لهم رسلاً من البشر ، يدعونهم إلى الله تعالى وتوحيده وعبادته ، فاستنكفوا عن ذلك ، وقعدوا بكل صراط يوعدون ويكذبون ، ويصدون عن سبيل الله من آمن ويبغونها عوجاً ، فاستحقوا - بذلك - الخلود فى النار:
((إِنَّ الَذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا واسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ولا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ وكَذَلِكَ نَجْزِي المُجْرِمِينَ)) [الأعراف: 40].
وقد وصف الله تعالى أولئك الملأ بالاستكبار، حتى أصبح ذلك وصفاً لازماً لهم، وها هــي الآيات القرآنية الكريمة تحدِّثنا عن موقف أولـئـك الملأ من أنبـيـائهـم، عـلـيـهم الصلاة والسلام، واستكبارهم عن اتباع الهدى:
أ - فالأشراف والسادة المستكبرون من قوم نوح - عليه السلام - ، يكذِّبون نوحاً؟ لأن أتباعه من البشر ، بل هم من فقراء البشر وأراذل القوم - بزعمهم - من أصحاب المهن البسيطة ، كالباعة والحاكة ، وغيرهم ، ولذلك فالسادة المستكبرون يأنفون أن يكونوا معهم فى دعوة واحدة ، وفي صف واحد يجمعهم:
((ولَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلَى قَوْمِهِ إنِّي لَكُمْ نَـذِيـرٌ مُّبِينٌ (25) أَن لاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ اللَّهَ إنِّـي أَخَــافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (26) فَقَالَ المَلأُ الَذِينَ كَـفَـرُوا مِـن قَـوْمِهِ مَا نَرَاكَ إلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا ومَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إلاَّ الَذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ومَا نَرَى لَكُمْ عَـلَـيْـنَـا مِـن فَـضْـلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ)) [ هود:26 - 27] ، ((قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ واتَّبَعَكَ)) [الشعراء:111].

وكأنهم طلبوا من نوح - عليه السلام - أن يطرد المؤمنين عنه ؛ احتشاماً ونفاسة منهم وأنفة أن يجلسوا معهم -تماماً كما طلب سفهاء قريش من النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يطرد عنه جماعة من الضعفاء ، ويجلس معهم مجلساً خاصاً - ولكن نوحاً - عليه السلام - أجابهم بما حكاه الله تعالى عنه، فقال:
((ومَا أَنَا بِطَارِدِ الَذِينَ آمَنُوا إنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ ولَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (29) ويَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ)) [ هود:29-30].
((ومَا أَنَا بِطَارِدِ المُؤْمِنِينَ (114) إنْ أَنَا إلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)) [الشعراء:114-115].
ب -وبعث الله تعالى هوداً - عليه السلام - إلى عاد ، وكانوا ذوي شدة وبأس وقوة ، وكأنهم قد وصلوا إلى قمة الإبداع المادي والحضارة الصناعية والرفاه وقتذاك - إلى حد الترف والإسراف ، فاتخذوا من البناء على جوادِّ الطرق المشهورة ما يبهر العقول ، ومن البروج المشيدة والبنيان المخلد ومآخذ الماء ما يثير الإعجاب ، وكل ذلك لا لحاجةٍ لهم ، بل هو يفيض عن حاجتهم ، فيتخذونه عبثاً وتكاثراً ولهواً ومفاخرة:
((أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)) [الشعراء:127-128].
فكان ذلك الثراء العريض والتقدم الصناعي ، الذي أُتخموا فيه ، سبباً من أسباب استكبارهم وغرورهم واستعلائهم.. فوقفوا ضد هود - عليه السلام -، وانطلق الملأ الكافر منهم -إذ كان فيهم من قد آمن بهود - عليه السلام - يكذِّب ويصد عن الدعوة ، وينشر الأراجيف والشائعات الكاذبة ، بحجة أن هوداً - عليه السلام - من البشر ، وكيف يؤمنون لبشر مثلهم؟:
((وإلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (65) قَالَ المَلأُ الَذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وإنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكَاذِبِينَ))، [الأعراف:65-66].
((وقَالَ المَلأُ مِن قَوْمِهِ الَذِينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ ويَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (33) ولَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِّثْلَكُمْ إنَّكُمْ إذاً لَّخَاسِرُونَ))،[المؤمنون:32-34].
((فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً))،[ فصلت: 15].
ج - وهاهم أولاء الملأ من قوم صالح - عليه السلام - يدفعهم الكبر إلى الاستعلاء والتكذيب والكفر:((قَالَ المَلأُ الَذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (75) قَالَ الَذِينَ اسْتَكْبَرُوا إنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ))، [الأعراف:76].
فهم كفروا بما آمن به هؤلاء المؤمنون المستضعفون ، استكباراً أن يكونوا مثلهم مؤمنين ، وكأنها نكاية بهم أو مشاكسة ومعاكسة لأولئك المؤمنين

المستضعفين ! وكيف يرضون لأنفسهم أن يطيعوا رجلاً من البشر ؛ ويصيروا مرءوسين له؟ وهم أصحاب الزعامة والسيادة والمال والثراء:
((كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (23) فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا واحِداً نَّتَّبِعُهُ إنَّا إذاً لَّفِي ضَلالٍ وسُعُرٍ (24) أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ)) ، [القمر: 23 - 25]
وكما كانت عاد في قمة التقدم الصناعي والرفاه والوفرة حتى أهلكهم الله تعالى بسبب تكذيبهم ، كذلك كانت ثمود ، فقد جاءت بعدها تخلُفُها في هذا المتاع الذي أنعم الله تعالى به عليهم وكان سبباً لاستكبارهم وكفرهم:
((واذْكُرُوا إذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وتَنْحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ ولا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ)) [الأعراف: 67].
((كَذَّبَتْ ثَمُودُ المُرْسَلِينَ (141) إذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (142) إنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وأَطِيعُونِ (144) ومَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إنْ أَجْرِيَ إلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ (145) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وعُيُونٍ (147) وزُرُوعٍ ونَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148) وتَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ (149) فَاتَّقُوا اللَّهَ وأَطِيعُونِ (150) ولا تُطِيعُوا أَمْرَ المُسْرِفِينَ (151) الَذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ولا يُصْلِحُونَ (152) قَالُوا إنَّمَا أَنتَ مِنَ المُسَحَّرِينَ (153) مَا أَنتَ إلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)) ، [الشعراء:141-154].
د -وكذلك وصف الله تعالى الملأ من قوم شعيب - عليه السلام - بالكبر ، فقال:
((قَالَ المَلأُ الَذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ والَّذِيـنَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (88) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ومَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وأَنتَ خَيْرُ الفَاتِحِينَ (89) وقَالَ المَلأُ الَذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إنَّكُمْ إذاً لَّخَاسِرُونَ)) [الاعراف:88-90].
هـ - وهي الصفة بعينها ، يصف الله تعالى بها الملأ من قوم فرعون:
((ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَى وهَارُونَ إلَى فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وكَانُوا قَوْماً مُّجْرِمِينَ))،[يونس:75].
((ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (45) إلَى فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وكَانُوا قَوْماً عَالِينَ (46) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ)) ، [المؤمنون:46-47].
((فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ والْجَرَادَ والْقُمَّلَ والضَّفَادِعَ والدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وكَانُوا قَوْماً مُّجْرِمِينَ)) [الأعراف: 133].

((ولَقَدْ جَاءهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ ومَا كَانُوا سَابِقِينَ))، [العنكبوت: 39].
و - والملأ من العرب ، زعماء قريش وصناديدها ، كانوا يستكبرون عن آيات الله ، وقد وصفهم الله تعالى بذلك فقال:
((اليَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الحَقِّ وكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ))،[الأنعام:93].
وفي المدينة كان المنافقون يأنفون أن يؤمنوا برسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - ؛ لأن المؤمنين حوله هم من السفهاء بزعمهم:
((وَإذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ)) ، [البقرة:13].
وقد كانوا إذا قيل لهم: تعالوا يستغفر لكم رسول الله صدوا وأعرضوا عما قيل لهم استكباراً عن ذلك واحتقاراً لما قيل لهم ، وكان يمثل ذلك الطاغية رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول (1) ، قال الله تعالى عنهم:
((وإذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ورَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وهُم مُّسْتَكْبِرُونَ)) ، [المنافقين:5].
* ونجد في السيرة النبوية نماذج لاستكبار الملأ من قريش ، فيما كانوا يطلبونه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يجعل لهم مجلساً خاصاً ، يجلس فيه معهم وحدهم ، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه ، كبلال وعمار ، وصهيب وخباب ، وابن مسعود ، رضي الله عنهم ، وليُفْرِد أولئك بمجلس على حده ، فهم يأنفون أن يجلسوا مع هؤلاء الضعفاء ، ويتكبرون عليهم ، فحذّر الله تعالى نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يميل إلى ذلك ونهاه عنه وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء المؤمنين الأتقياء (2).
((واصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ والْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وجْهَهُ ولا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ولا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا واتَّبَعَ هَوَاهُ وكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)) ، [الكهف: 28].
وعن سعيد بن أبى وقاص - رضي الله عنه - قال: كنا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ستة نفر ، فقال المشركون للنبي: اطرد هؤلاء ، لايجترئون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود ، ورجل من هذيل ، وبلال ، ورجلان لست أسميهما. فوقع في نفس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما شاء الله أن يقع ، فحدّث نفسه. فأنزل الله عز وجل:((ولا تَطْرُدِ الَذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ والْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وجْهَهُ)) [الأنعام: 52] (3).
وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: مرَّ الملأ من قريش على رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار. فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء؟ فنزل فيهم القرآن: ((وأَنذِرْ بِهِ الَذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إلَى رَبِّهِمْ)) إلى قوله: ((أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ)) [الأنعام: 51 -53] (4).

وأخرج الإمام ابن جرير الطبري عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: مرَّ الملأ من قريش بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ، ونحوهم من ضعفاء المسلمين ، فقالوا: يا محمد رضيت بهؤلاء من قومك ؛ أهؤلاء الذين منَّ الله عليهم من بيننا ؛ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء ؛ اطردهم عنك! فلعلك - إن طردتهم - أن نتبعك! فنزلت هذه الآية: ((ولا تَطْرُدِ الَذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ والْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وجْهَهُ)) إلى قوله تعالى: ((وكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ)) إلى آخر الآية (5).
وأخرج أيضاً عن خباب - رضى الله عنه- في قوله تعالى:! ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) إلى قوله: معم فتكون من الظالمين ، ، قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي ،وعيينة بن حصن الفزاريّ ، فوجدوا النبي - صلى الله عليه وسلم - قاعداً مع بلال وصهيب وخباب ، في أناس من الضعفاء من المؤمنين ، فلما رأوهم حوله حَقَروهم ، فأتوه فقالوا: إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف العرب به فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبُد. فإذا نحن جئناك فاقمهم عنا ، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت! قال. نعم!
قالوا: فاكتب لنا عليك بذلك كتاباً. قال: فدعا بالصحيفة ، ودعا علياً ليكتب.
قال: ونحن قعود في ناحية ، إذ نزل جبريل بهذه الآية: ((ولا تَطْرُدِ الَذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ والْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ومَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ)) ، ثم قال: ((وكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ)) ، ثم قال: ((وإذَا جَاءَكَ الَذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)) ، فالقى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الصحيفة من يده ، ثم دعانا ، فأتيناه وهو يقول: ((سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ))! فكنا نقعد معه ، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا ، فأنزل الله تعالى: ((واصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ والْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وجْهَهُ ولا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا)) [الكهف: 28]. قال: فكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقعد معنا بعد ، فإذا بلغ الساعة التي يقوم فيها ،قمنا وتركناه حتى يقوم (6).
وعن عكرمة ، رحمه الله ، في قوله تعالى: ((وأَنذِرْ بِهِ الَذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إلَى رَبِّهِمْ)) الآية ، قال: جاء عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، ومطعم بن عدي ، والحارث بن نوفل ، وقرظة بن عبد عمرو بن نوفل ، في أشراف من بني عبد مناف من الكفار ، إلى أبي طالب قالوا: يا أبا طالب ، لو أن ابن أخيك يطرد عنه موالينا وحلفاءنا ، فإنما هم عبيدنا وعسفاؤنا(7) ، كان أعظم في صدورنا ، وأطوع له عندنا ، وأدنى لاتِّباعنا إياه ، وتصديقنا به! قال: فأتى أبو طالب النبي - صلى الله عليه وسلم - فحدثه بالذي كلموه به ، فقال عمر بن الخطاب: لو فعلتَ ذلك حتى تنظر ما الذي يريدون وإلامَ يصيرون من

قولهم؟ فأنزل الله تعالى ذكره هذه الآية: ((وأَنذِرْ بِهِ الَذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إلَى رَبِّهِمْ ...)) إلى قوله ((أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ)) ، قال: وكانوا: بلال ، وعمار بن ياسر ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وصبيح مولى أسيد. ومن الحلفاء: ابن مسعود ، والمقداد بن عمرو ، ومسعود بن القاريّ ، وواقد بن عبد الله الحنظلي ، وعمرو بن عبد عمرو ذو الشمالين ، ومرثد بن أبي مرثد ، وأشباههم من الحلفاء. ونزلت في أئمة الكفر من قريش والموالي والحلفاء: ((وكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا)) الآية. فلما نزلت أقبل عمر بن الخطاب فاعتذر من مقالته ، فأنزل الله تعالى ذكره: ((وإذَا جَاءَكَ الَذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ)) الآية (8).

## .. تعليل وتحذير

وفي تعليل موقف النبي - صلى الله عليه وسلم - واجتهاده في دعوة أولئك الملأ وما أعقب ذلك من توجيهات ربانية يقول الباحث محمد عزة دروزة - رحمه الله-:

ولقد أدرك النبي - صلى الله عليه وسلم - أن موقف الزعماء هو المؤثر في الجمهور ، وأن نطاق دعوته سوف يبقى ضيقاً ، وأنها سوف تتعثر ، وأن الأذى سوف يشتدُّ على المؤمنين مادام الزعماء في هذا الموقف. وكان بعضهم معتدلاً ، أو أقل اندفاعاً في المناوأة والكيد والصدّ من بعض، فأدَّاه اجتهاده إلى بذل الجهد في تألُّفِهم وإقامة الصِّلات معهم ، بل ومسايرتهم شيئاً ما ، ولو كان في ذلك بعض الغضِّ أو الإهمال لأصحابه ، على أمل كسبهم للدعوة وكسر الطوق المضروب حولها.

وكان هذا الاجتهاد خلاف الأولى في علم الله عزَّ وجل ، فاقتضت حكمة الله تنبيهه إلى ذلك ، وإلى أن مهمته هي: الإنذار والتبشير والدعوة ، والاهتمام بالذين آمنوا به وانضووا إليه ، وعدم المبالاة بالزعماء الذين امتنعوا عن الاستجابة أو وقفوا موقف الصدِّ والأذى ؛ بسبب استكبارهم ، وخبث نياتهم ، وسوء أخلاقهم ، واعتباراتهم الشخصية والأسرية. وأن كل ما عليه هو أن يتلو القرآن ويدعو إلى الله ومكارم الأخلاق. فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضلَّ فإنما يضل عليها ، وأنه ليس هو وكيلاً عليهم ولا مسؤولاً ، ولا جبَّاراً ولا مسيطراً ، وإنما هو منذر ، على ما جاء في آيات عديدة في سُوَرٍ عديدة ، منها هذه الآيات كمثال:

1 -((قَدْ جَاءكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ومَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ومَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ)) [الأنعام : 104].

2-((قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ومَن ضَلَّ فَإنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ومَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (108) واتَّبِعْ مَا يُوحَى إلَيْكَ واصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ)) [يونس : 107 - 109].

3 - ((إنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البَلْدَةِ الَذِي حَرَّمَهَا ولَهُ كُلُّ شَيْءٍ وأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المُسْلِمِينَ (91) وأَنْ أَتْلُوَ القُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ومَن ضَلَّ فَقُلْ إنَّمَا أَنَا مِنَ المُنذِرِينَ (92) وقُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ومَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)) [النمل:91-93].
4 - ((نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ومَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وعِيدِ))
[ ق:45].
5 - ((فَذَكِّرْ إنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (21) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ (22) إلاَّ مَن تَوَلَّى وكَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ العَذَابَ الأَكْبَرَ (24) إنَّ إلَيْنَا إيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)) [الغاشية : 21 - 26] (9).

## هؤلاء أتباع الأنبياء... سنة ثابتة:

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - (10):
إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان غالب من اتبعه في أول بعثته ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء ، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل ، كما قال قوم نوح لنوح: ((ومَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إلاَّ الَذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ)) الآية (هود: 27)، ، وكما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ، حين سأله عن تلك المسائل ، فقال له: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؛ فقال: بل ضعفاؤهم. فقال: هم أتباع الرسل (11).
والغرض أن مشركي قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم ، ويعذِّبون من يقدرون عليه منهم ، وكانوا يقولون: أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا ؛ أي: ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير ، لو كان ما صاروا إليه خيراً ، ويدعنا ، كقولهم: ((لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إلَيْهِ)) [الأحقاف:11] ، وكقوله : ((وإذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وأَحْسَنُ نَدِياً)) [مريم : 73].
قال الله تعالى في جواب ذلك : ((وكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً ورِءْياً)) [مريم : 74]. وقال في جوابهم ، حين قالوا : ((أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ)) [الأنعام : 53] أي : أليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم فيوفقهم ويهديهم سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم ، كما قال تعالى : ((جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وإنَّ اللَّهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ)) [العنكبوت : 69].
وفي الحديث الصحيح : »إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم« (12).
فتاريخ الرسالات السماوية وسنة الله في الدعوات ، يدلان على أن الذين يبادرون قبل غيرهم ، ويسارعون إلى تصديق الرسل ، عليهم الصلاة والسلام ،

فى غالبيتهم من أولئك الفقراء والعبيد والمستضعفين ، وهؤلاء هم الفئات المهضومة حقوقهم ، أو الذين حرموا من الامتيازات الاجتماعية أو السياسية ، التي احتكرها لأنفسهم الملأ المستكبرون الطاغون ، الذين أوقعوا عليهم الظلم والاضطهاد بفعل النظام السائد الذي يهدر آدمية الفقراء ويجعل الملأ الكبراء سادة بالفطرة ، لهم على العبيد حق السمع والطاعة والخضوع.
ويقول صاحب المنار : مضت سنة الله تعالى أن يسبق الفقراء المستضعفون من الناس إلى إجابة دعوة الرسل واتباعهم وإلى كل دعوة إصلاح ، لأنه لا يثقل عليهم أن يكونوا تبعاً لغيرهم ، وأن يكفر بهم أكابر القوم المتكبرون ، والأغنياء المترفون ، لأنه يشق عليهم أن يكونوا مرؤوسين ، وأن يخضعوا للأوامر والنواهى التي تحرم عليهم الإسراف الضار ، وتوقف شهواتهم عند حدود الحق والاعتدال (13).

## ومن الواقع التاريخي :

وإذا كانت هذه قاعدة عامة في الدعوات السماوية ، كما حكاها الله تعالى في القرآن الكريم ، فإننا نجد لها أمثلة أخرى فى تاريخ البشر وواقعهم :
فقد كان في مقدمة الذين سارعوا في الدولة الرومانية إلى اعتناق المسيحية ، هم الأرقاء ، لأنها وعدتهم بملكوت السماء ، وأعلنت أنه ليس مقصوراً على السادة ، بل إنها أخبرتهم أن دخول الأغنياء الجنة هو أصعب من أن يلج الجمل في سم الخياط ، والمفروض أنه الغني الباغي الظالم المستكبر..
وفي التاريخ الجاهلي الحديث ، كان من أكبر المؤيدين للثورة الفرنسية: الفلاحون ؛ كي تخلصهم من القيود الاقتصادية والاجتماعية التي فرضها عليهم المُلاَّك الإقطاعيون ، وأرباب الحرف والصنائع ؛ لتحررهم من سيطرة نقابات الطوائف ، والعامة كي يكون لهم نصيب من الحكم الذي كان مقصوراً على الملوك والنبلاء والفئات العليا ورجال الكنيسة (14) ، ولعل هذا يفسر شعار تلك الثورة المعروف ، وهو : "الحرية والإخاء والمساواة" الذي أطلقوه ليخدعوا به الناس وليكسبوا الجماهير إلى صفهم.

## .. جاهلية قديمة جديدة..

ورغم الدعوات التي يطلقها كثير من الناس في الشرق والغرب ، يزعمون فيها أنهم دعاة تحرر الإنسان وأنهم جاؤوا لينقذوا الضعفاء والمهضومة حقوقهم ، وأنهم أنصار حقوق الإنسان ، وأنهم سند لحق الشعوب في تقرير مصيرها ، ومن أجل ذلك أنشئت المنظمات الدولية وما تفرع عنها من مجالس ومنظمات.. رغم هذا فإنهم هم الذين يكرسون الظلم والعدوان ويزدرون الضعفاء حتى ولو كانوا يجلسون بجانبهم في مقعد من مقاعد منظماتهم التي اصطنعوها لتكون أداة سيطرة على الآخرين.
يقول صاحب : "منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله":

ومازال لهذه الطبقية الشاذة الهمجية جذور راسخة في عصرنا الذي يسمى بعصر التقدم والمدنية:
-فبعض المنسوبين إلى أهل العلم يتطاولون على الذين لا علم عندهم!.
- والأغنياء المترفون - الرأسماليون والإقطاعيون - يحتقرون العمال الكادحين والفقراء المدقعين ، ولو كانوا أصحاب مواهب فذة!!.
- وأرباب الوظائف الكبيرة يزدرون عامة الناس ، ويتخذون من أنفسهم أرباباً من دون الله!!.
وهذه كلها مقاييس جاهلية ، مهما نعق دعاتها بالمساواة والعدل.. ولله سبحانه وتعالى مقياس ثابت لا يتزعزع : ((إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)) [الحجرات : 13].
إن المتقين أعزُّ خلق الله ، وأرفعهم شأناً ، ولو كانوا شعثاً غبراً لا يملكون مالاً أو جاهاً.. فهم مؤمنون أتقياء وكفاهم ذلك نسباً وشرفاً...

## درس للدعاة..

وإذا كان الاستكبار في الأرض بغير الحق ، والاستعلاء على الناس ، عقبة أمام كل دعوة وإصلاح ، وجسراً إلى النار ، وسبباً للهلاك والبوار ، فينبغي على المؤمنين عامة ، والدعاة خاصة ، أن يكونوا على حذر من الكبر والغرور ، وأن يرتقوا إلى أفق مشرقٍ وضيء ، فيكونوا من الموطئين أكنافاً الذين يَأْلَفُون ويُؤْلفون ، وأن يطامنوا من كبريائهم ، وأن يخفضوا جناحهم لإخوانهم المؤمنين ، فيدخلون في زمرة عباد الرحمن الذين يمشون في الأرض هوناً ، وعندئذ يمدون أبصارهم للدار الآخرة التي جعلها الله تعالى للمؤمنين المتواضعين:
((تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُواً فِي الأَرْضِ ولا فَسَاداً والْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)) [القصص:83].
وما أعظم ما أدبَّنا الله تعالى به ، عندما اقتلع من نفوسنا كل بذرة تنبت الكبر في نفس صاحبها! وما أعظم أدب الإسلام عندما جعل في نفس كل إنسان وازعاً ونوراً يستضيء به ، وحكماً عدلاً لا يخطئ الصواب يقضي بأن الكبر تزوير للحقيقة وتعالٍ على الناس بدون حقٍ.. إذ لا شيء ، مما يتيه به الإنسان فخراً على الآخرين ، ويتكبر عليهم بسببه ، يسوِّغ له ذلك ويبرره.
* أرأيت العلم الذي تُفاخِر به وتتكبر؟ إنه من عند الله سبحانه ، ومهما أوتيت منه فلن تبلغه كله:
((وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا)) [البقرة : 31].
((وفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)) [يوسف : 76].
((ومَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً)) [الإسراء : 85].
* أرأيت إلى الملك والسيادة والزعامة؟ إنها بقدر من الله تعالى ، وهو ينزعها منك متى شاء:

((قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَن تَشَاءُ وتَنزِعُ المُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) [آل عمران : 26].

* أرأيت إلى الرزق والمال والمتاع المادي كله؟ إنك لم تخلق منه شيئاً ، فهو كله من عند الله ، وليس لك فيه إلا الكسب:

((أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65) إنَّا لَمُغْرَمُونَ (66) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67) أَفَرَأَيْتُمُ المَاءَ الَذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المُزْنِ أَمْ نَحْنُ المُنزِلُونَ (69) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلا تَشْكُرُونَ)) [الواقعة: 63 - 70].

* وحتى الطاقة التي تستخدمها وتُسَخّرها لتيسير سبل الحياة لديك.. إنها هبة من الله تعالى ومنحة للبشر:

((أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَتِي تُورُونَ (71) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ المُنشِئُونَ (72) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ومَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ)) [الواقعة : 71 - 73].

* وماذا بقي لديك؟ الحسب والنسب؟ فهل لك في ذلك إرادة واختيار؟ هل كنت بمحض إرادتك من

بني فلان أو من بنى فلان آخر...؟ وما الذي يميزك عن غيرك ، والكل يمتون بالنسب إلى أصل واحد.. إلى آدم - عليه السلام -:

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأُنثَى وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)) [الحجرات : 13] ، »والناس كلهم لآدم وآدم من تراب لا« (15).

فماذا بقي بعد هذا كله؟ ماذا بقي لك تتكبر به على الآخرين إلا العجز والضعف ومعرفة الأصل الذي كنتَ والنهاية التي إليها تصير؟.

فلتعد إلى نفسك ، ولتضعها في مكانها ، ولا ترفعها إلى ما لا تستحق ، وليكن لك برسول الله - صلى الله عليه وسلم - أسوة حسنة.

**الهوامش :**

1 - انظر: تفسير ابن كثير 2/ 372 - 377 ، 4/370 - 373 ، دار الفكر. بيروت.

2 - انظر: تفسير ابن كثير 2/81.

3 - أخرجه الإمام مسلم في فضائل الصحابة برقم (46) ، وابن ماجه في الزهد برقم (4128) ، وقال الشيخ محمود شاكر في تعليقه على الطبري: 11/379: خرجه السيوطي في الدر المنثور ، وزاد نسبته لأحمد وابن أبي حاتم وابن حبان وأبي الشيخ وابن مردويه وأبي نعيم والحاكم والفريابي وعبد بن حميد والنسائي وابن المنذر.

4 - مسند الإمام أحمد:1/420.

5- أخرجه الطبري في التفسير: 11/574 - 575، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد 7/20: رواه أحمد والطبراني ، ورجال أحمد رجال الصحيح، غير كردوس ، وهو ثقة. ونسبه السيوطي لابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه وأبي نعيم في الحلية. انظر: تفسير الطبري بتحقيق وتعليق محمود شاكر ، في الموضع نفسه.
6- الطبري 11/376 - 377 ، وابن ماجه برقم (4127) في الزهد ، قال المحقق: في الزوائد: إسناده صحيح ، ورجاله ثقات. وقد روى مسلم والنسائي والمصنف بعضاً من حديث سعد بن أبي وقاص. وقال ابن كثير في التفسير 2/136: (وهذا حديث غريب فإن هذه الآية مكية والأقرع بن حابس وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر) ونسبه السيوطي أيضاً لابن أبي شيبة وأبي يعلى وأبي نعيم في الحلية وابن المنذر وأبي الشيخ ، وابن مردويه والبيهقي في الدلائل. انظر: تعليق محمود شاكر على الطبري ( 11/377 ).
7 - العسفاء: جمع (عسيف) ، وهو العبد ، والأجير المستهان به.
8 - أخرجه الطبري بإسناده عن عكرمة في التفسير : 11/379 - 380.
9 - انظر بحثه القيم عن: (معركة النبوة مع الزعامة) ص 246 - 248 ، وهو البحث المقدم للمؤتمر العالمي الثالث للسيرة النبوية عام 1400 هـ بالدوحة ، ومنشور في البحوث والدراسات المقدمة للمؤتمر 6/407 وما بعدها ، الطبعة الأولى 1401 هـ.
10 - تفسير ابن كثير 2/136.
11 - القصة بكاملها في البخاري ، كتاب بدء الوحي رقم (7) ، فتح الباري 1/31 - 33 وفي مواضع أخرى منه ، ومسلم في الجهاد والسير ، برقم ( 74) 3/1393 - 1397 ، والإمام أحمد في المسند: 1/262.
12 - أخرجه الإمام مسلم في البر والصلة برقم (2564) ، والإمام أحمد في المسند 2/285 و 539 ، وابن ماجه في السنن ، كتاب الزهد برقم ( 4143) ، والبغوي في شرح السنة برقم ( 4150) 14/341.
13 - تفسير المنار للسيد رشيد رضا : 8/504.
14- انظر: التفسير القرآني للتاريخ ، د. راشد البراوي: ص 158.
15 - أخرجه الترمذي وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه. وإسناده حسن ، مشكاة المصابيح بتحقيق الشيخ الألباني:3/1373.

## من الأخ إبراهيم الهزاع ..جاءت هذه الخاطرة:

إن ما نرى من فرقة واخـتـلاف بـيـن المسلمين من أسبابه انعدام الثقــة بينهم ، تعيش مع الرجل السنين الطوال ، ويعرف عـنـك دقـائـق أمــورك ، فـيأتـيـه ناعق من غربان الفساد فيوحي له بكلمات لا أصل لها ولا منبت،

فيعرض له الشك ، وبدلاً من أن يأتيك ويسألك عن الأمر تأكيداً أو نفياً ؛ فإنه يعرض عنك ، ويصرم حبلك ، ولا يكـلـف نفسه - بما لك من حق عليه - بالنصح والإرشاد ، بل قد يكون هو ممن ينقلون هذه الفـريـة وينشـرها بين الناس .
فليكن لـنـا مـقـيـاســاً نقـيـس بـه هــذه الأمـور قوله تعالى: ((لَوْلا إذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ المُؤْمِنُونَ والْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وقَالُوا هَذَا إفْكٌ مُّبِينٌ)) [النور 12].
فلنحسن الظن بالناس ، ولا نجعل الإشاعات وأحاديث الإفك تدور بيننا ، ولنكن مقبرة لكل إشاعة ، ولا نبني أحكامنا إلا على حقائق نعلمها ؛ فإن مقام الشهادة على الناس مقام عظيم. ولنذكر قوله - صلى الله عليه وسلم - لمعاذ: »وهل يكب الناس على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم«.

وصلى الله على نبينا محمد.

أدب وتاريخ

# معالم حول كتابة التاريخ الإسلامي
## (5)
## النقد التاريخي
## عند ابن تيمية وابن خلدون

محمد العبدة

لا شـك أن مـن المهـمـات الرئيسية للمؤرخ بعد الاطلاع على المرويات التاريخية ، تمحيص الخبر وبيان صحته أو زيفه ، وذلك بعد عرضه على منهج واضح محدد المعالم يرتضيه هو لنفسه ، ذلك أن الخبر بطبيعته يتطرق إليه الوهم والغلط أو الكذب أحياناً ، وقد تكلم ابن خلدون في مقدمته عن الأسباب التي تقتضي الكذب في الأخبار فذكر منها:
1- التشيعات للآراء والمذاهب ، لأن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه.
2 - الثقة بالناقلين. وتمحيص ذلك يرجع إلى التعديل والتجريح.
3 - الجهل بالقوانين التي تخضع لها الظواهر الطبيعية.
4 - الجهل بطباع العمران (1).
والمقصود بالظواهر ظواهر علم الفلك والكيمياء والطبيعة والحيوان والنبات.. وقد انتقد ابن خلدون المؤرخين الذين ليس عندهم إلمام بهذه العلوم ، فيقبلون الأخبار التي تتناقض تناقضاً تاماً مع القوانين العلمية كالخبر الذي ذكره المسعودي عن بناء الإسكندرية (2).
والمقصود بطبائع العمران الظواهر الاجتماعية ، كالعادات ، والتقاليد ، و الغنى ، والفقر ، والعلم ، والجهل ، وكثرة السكان ، أو قلتهم ، وطبيعة الدول... الخ ،

ضمن كل هذه العوامل هل من الممكن وقوع الحادثة أم لا؟ وسنرى كيف يطبق ابن خلدون هذا المنهج في نقده لبعض الأخبار ، وكيف يعتبر أن العلم بطبيعة العمران هو أهم سلاح يوجه للخبر التاريخي: وهو أحسن الوجوه وأوثقها في تمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها ، ولا يرجع إلى تعديل الرواة حتى يعلم أن ذلك الخبر في نفسه ممكن أو ممتنع ، وأما إذا كان مستحيلاً فلا فائدة للنظر في التعديل والتجريح) (3).
وهذا الكلام وإن كان مقبولاً بشكل عام ، ولكنه يحتاج إلى شيء من التحفظ ؛ فهناك روايات صحيحة ينقلها ثقاة عدول يعلمون ما ينقلون عن أمور خارقة للعادة ، وبالشروط المطلوبة لوقوع الكرامة فنحن نصدقها ، ولا نقبل من أحد أن يقول: هذه لا يمكن وقوعها، كحادثة العلاء بن الحضرمي - رضي الله عنه - في فتح إقليم فارس زمن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وإن كان الأصل هو الأخذ بالأسباب وجريان الأمور على سنن كونية لا تتخلف مع أن الخبر التاريخي يختلف من بعض الوجوه عن نقل حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ولكن يبقى أن منهج الجرح والتعديل الذي قام به أهل الحديث هو من أعظم العلوم التي برز فيها المسلمون ، ونقدوا فيها الروايات التي تتعلق بحديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واتخذوا في ذلك منهجاً صارماً للغاية ، ذباً عن السنة أن يدخل فيها ما ليس منها ، وإن تطبيق هذا المنهج على الروايات التاريخية - إن أمكن ذلك - لهو في غاية الأهمية ، ولكن هناك صعوبات تعترض هذا التطبيق ، منها:
1 - لم تؤلف الكتب في جرح وتعديل رواة التاريخ كما وقع لرواة حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ولا شك أن الاهتمام بالسنة هو الأولى والمقدم ، والمقصود : معظم الروايات التاريخية ، وإلا فهناك رواة للتاريخ يمكن معرفة حالهم من كتب الجرح والتعديل.
2 -إن البحث والتفتيش عن الرواة انتهى في القرون الأولى بعد أن اطمأن علماء الحديث إلى حفظ سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ولكن التاريخ حركة دائبة ، فكيف العمل في الأحداث التي جاءت من بعد؟.
3 - تتدخل عوامل كثيرة في الحدث التاريخي غير الرواية ، مما يساعد على التأكد أو الشك في الخبر ، كالآثار التاريخية والعوامل الجغرافية.. الخ.
لهذه الأسباب ولغيرها لابد من الجمع بين منهج أهل الحديث ، وما ذكره ابن خلدون من عدم مخالفة الخبر لسنن الاجتماع ، أو عدم مخالفته للعقل الصريح ، مع الاستفادة أيضاً من مناهج النقد الحديثة عند دارسي التاريخ ، مما يتفق والأصول العامة للإسلام.
وسنعرض لنموذجين من تحليل الحديث التاريخي ، ونقد الخبر ، وعرضه على منهج قواعد علم الاجتماع.
**أولا:** ناقش ابن تيميه الذين يطعنون في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان - رضى الله عنهم - ويقولون: إن المسلمين خالفوا الوصية التي يزعمون أن رسول

الله - صلى الله عليه وسلم - أوصى بها لعلي بن أبي طالب -رضى الله عنه-.
قال:
(نقدر أن الأخبار المتنازع فيها لم تكن ، فنرجع إلى ما هو معلوم بالتواتر ، أو بالعقل والعادات ، أو ما دلت عليه النصوص المتفق عليها فنقول:
من المتواتر أن أبا بكرٍ لم يطلب الخلافة برغبة ولا برهبة ، فلا بذل فيها مالاً ولا شهر عليها سيفاً ، ولا كانت له عشيرة ضخمة ، بل ولا قال : بايعوني ، ومن تخلف عن بيعته لم يؤذه ، ولا أكرهه عليها ، كسعد بن عبادة ، فلما جاءه اليقين خرج منها أزهد مما دخل فيها ، لم يستأثر منها بشيء ولا آثر بها قرابة ، بل نظر إلى أفضلهم في نفسه (عمر بن الخطاب) فولاه عليهم فأطاعوه ففتح الأمصار ، وقهر الكفار ، وبسط العدل ، حتى خرج منها شهيداً لم يتلوث لهم بمال ، ولا ولى أحداً من أقاربه ولاية ، هذا أمر يعرفه من يعرف وينصف، ثم بايعوا عثمان كلهم طوعاً منهم ، فسار وبنى على أمر قد استقر قبله بسكينة وحلم وكرم ولين ، ولكن لم تكن فيه قوة عمر ، ولا سياسته التي بهرت العقول ، فطمع فيه الناس بعض الطمع ، وتوسعوا في الدنيا ، وكثرت عليهم الأموال ، وتولد من رغبة بعض الناس في الدنيا وضعف خوفهم من الله تعالى ، ومن ضعفه هو بالنسبة إلى كمال الذين سبقوه ، ما استحكم به الشر ، وحرك الفتنة ، حتى قتل مظلوماً. فتولى عليٌّ -رضى الله عنه- والفتنة قائمة ولم تصف قلوب كثير منهم ، ولا أمكنه هو قهرهم حتى يطيعوه ، ولا اقتضى رأيه الكف عن القتال حتى ينظر ما يؤول إليه أمره ، كما أشار عليه ولده الحسن ، ثم افترقت عليه الخوارج ، وقاتلوه - قاتلهم الله -فكان آخر الخلفاء الراشدين الذين ولايتهم خلافة النبوة.

**طريق آخر:** وهو أن يقال: دواعي المسلمين بعد موت نبيهم كانت متوجهة إلى اتباع الحق قطعاً ، وليس لهم ما يصرفهم عن الحق ، وهم قادرون على ذلك ، وإذا حصل الداعي إلى الحق وانتفى الصارف مع القدرة وجب الفعل. فعلم أن المسلمين خير القرون بايعوا أبا بكر تديناً لا لرغبة ولا لرهبة ، فلو فعلوا بموجب الطبع لقدموا علياً أو العباس ، لشرف بني هاشم ، ولما قيل لأبي قحافة : إن ابنك ولي الخلافة ، قال : ورضيت بنو أمية وبنو هاشم وبنو مخزوم ؛ قالوا: نعم ، فعجب ، وقال: »ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء«.

طريق آخر: تواتر أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال: »خير هذه الأمة قرني ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم« فخير الأمم ، بلا نزاع ، القرن الأول ، ومن تأمل حال المسلمين في القرن الثاني بالنسبة إلى الأول ، علم تباين ما بينهما ، فإن كان القرن الأول جحد حق الإمام المنصوص عليه ، ومنعوا عادلاً عالماً عناداً ودفعاً للحق ، فهؤلاء شر الخلق وهذه الأمة شر الأمم أخرجت للناس.

طريق آخر: عرف بالتواتر الذي لا يخفى أن أبا بكر وعمر وعثمان كان لهم بالنبي اختصاص عظيم وخلطة وصحبة ومصاهرة ، وما عرف عنه أنه كان يذمهم ، فإما أن يكونوا على الاستقامة ظاهراً وباطناً معه وبعده ، أو لا. فالأول هو المطلوب ، والثاني إما أنه علم وداهنهم ، أو لم يعلم ، وأيهما قدر فهو من أعظم القدح في الرسول -عليه السلام-. وإن كانوا انحرفوا بعد الاستقامة فهذا خذلان من الله لنبيه في خواص أمته ، ومن وُعد أنه يظهر دينه على الأديان كيف يكون أكابر خواصه مرتدة؟! هذا من أعظم القدح في الرسول والطعن فيه) (4)
وبنفس هذه الروح من مناقشة الروايات يرد ابن تيميه على من يقول: إن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- كان سيولي بعده سالماً مولى أبي حذيفة لو كان حياً ، ويترك تولية أحد من أهل الشورى يقول:
(فكيف يظن بعمر أنه يولي مولى ، بل من الممكن أنه كان يوليه ولاية جزئية ، أو يستشيره فيمن يولي ونحو ذلك من الأمور التي يصلح لها سالم مولى أبي حذيفة ، فإن سالماً كان من خيار الصحابة) (5).
ثانياً - طبق ابن خلدون منهجه في نقد الخبر وهو: هل يثبت هذا الخبر أولاً إذا عرض على قواعد علم الاجتماع ، أو أنه يتناقض مع طبيعة العصر وطبيعة العلاقات الاجتماعية يومها ؛ وذكر أمثلة على منافاة الأخبار لطبيعة قواعد علم الاجتماع نذكر منها:
أ- قصة العباسة أخت الرشيد قال: (ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة عن سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه ، وأنه لِكَلَفه (6) بمكانهما أذن لهما في عقد النكاح دون الخلوة حرصاً على اجتماعهما في مجلسه ، وأن العباسة تحيلت على التماس الخلوة ، فحملت من جعفر ووشي بذلك للرشيد فاستغضب ...
ويتابع ابن خلدون نقده لهذا الخبر:(وهيهات ذلك من منصب العباسة في دينها، وأبويها، وجلالها، وأنها بنت عبد الله بن عباس ليس بينها وبينه إلا أربع رجال هم أشراف الدين وعظماء الملة من بعده، والعباسة بنت محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ترجمان القرآن، ابنة خليفة، أخت خليفة، محفوفة بالملك العزيز ، قريبة عهد ببداوة العروبية وسذاجة(7) الدين البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش ، وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالي الأعاجم على همته وعظم آبائه ؛ وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة ، واستنكاف الرشيد عن الحَجْر والأنفة..) (8).
ب-كثيراً ما يقع المؤرخون في الوهم والغلط عندما يكون الخبر متعلقاً بالأرقام والإحصائيات ، كإحصاء الجيوش، أو أموال الخراج، وبعض الناس عندهم ولع بتضخيم الأرقام، فيذكرون أشياء تصادم العقل والبديهيات ، وتصادم قانون

النمو السكاني ، وقد انتقد ابن خـلــدون الـمـؤرخـين قبله لوقوعهم في هذه الأغلاط، واعتمد في نقده، على علم الإحصاء، وتكاثر السكان ضمن البيئة الجغرافية التي يعيشون فيها. يقول:
(وهذا كما نقل المسعودي وكثير من المؤرخين في جيوش بني إسرائيل ، وأن موسى -عليه السلام- أحصاهم في التيه بعد أن أجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها ، فكانوا ستمائة ألف أو يزيدون).
يعلق ابن خلدون على هذه الرواية: (ويذهل في ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعهما لمثل هذا العدد من الجيوش ، ولقد كان ملك الفرس ودولتهم أعظم من ملك بني إسرائيل ، ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريباً منه ، وأعظم ما كانت جموعهم بالقادسية مائة وعشرون ألفاً كلهم متبوع ، وكانوا في أتباعهم أكثر من مائتي ألف ، وعن عائشة والزهري أن جموع رستم التي زحف بها لسعد بالقادسية إنما كانوا ستين ألفا.
وأيضاً ، فالذي بين موسى وإسرائيل (يعقوب عليه السلام) إنما هو أربعة آباء على ما ذكره المحققون ، وكان مقامهم بمصر إلى أن خرجوا مع موسى -عليه السلام- إلى التيه مائتين وعشرين سنة ، ويبعد أن يتشعب النسل في أربعة أجيال إلى مثل هذا العدد« (9).
لا شك أنها نظرة متقدمة جداً من ابن خلدون وهي اكتشافه لقانون التكاثر والنمو السكاني.
لقد كان الهدف الرئيسي عند ابن خلدون من كتابة المقدمة هو تخليص الروايات التاريخية من الخطأ والكذب ، ووضع القوانين التي تساعد المؤرخ على عدم الوقوع في الأخطاء ، ولذلك تكلم عن العمران البشري والقوانين التي تحكم سكونه وحركته. ولكنه فوجئ بأنه أتى بعلم جديد هو بحد ذاته هدف ثمين.
ولكن رغم أهمية ما جاء به ابن خلدون لابد من التأكيد على أن منهج أهل الحديث في نقد الخبر هو من أعظم المناهج ، وإذا استطعنا الجمع بين هذا المنهج ومنهج النقد الاجتماعي والعقلي عند ابن خلدون وغيره من دارسي التاريخ -مع بعض التحفظات على هذه المناهج- فسوف نؤدي بعملنا هذا خدمة جليلة للتاريخ الإسلامي.

**الهوامش:**

1 - المقدمة 1/328، ط 3 دار النهضة ، نشر د. علي عبد الواحد وافي.
2 - ا لمقدمة 1/329.
3 - المقدمة 1/330.
4 - المنتقى من منهاج الاعتدال482، 485.
5 - المصدر السابق368.
6 - كلفتُ به: أحببته وأولعت به.

7 - يقصد بها الفطرة السليمة والوضع الطبيعي الذي لم تشبه شائبة ، والساذج: الصافى لم يختلط بغيره، انظر: المقدمة 1/301.
8 - المقدمة 1/300.
9 - المقدمة 1/292.

أدب وتاريخ

# مفهوم الجاهلية في الشعر الجاهلي (5)

محمد الناصر

**ملخص الحلقة السابقة :**

في الحلقة السابقة تحدث الكاتب عن بـعـض أيـام الـعـرب الـمـشـهـورة كحرب البسوس ، وحرب داحس والغبراء ، وحرب الفجار ، وما جرى في هذه الحـروب من ثارات وما قيل فيها من شعر ، وفي هذه الحلقة يدخل الفترة الإسلامية ، أثر الإســلام فـي تـلـك الـبـيـئة

**التمهيد:**

من خلال دراستنا للحياة الـسـيـاسـيـة في الشعر الجاهلي لا حظنا أن لهذه الحياة مقومات أساسية نوجزها فيما يأتي:

**1- القبيلة:** هي البنية الاجتماعــيــة والسياسية لتلك المجتمعات ، ففيها يجد العربي الحماية والطمأنينة، ولها يتعصب، والرباط الأقوى فيها هو العصبية التي تنسي أصحابها كل تعقل وتوازن ، فلا رأي ولا حرية لـلـفــرد أمام عادات القبيلة وتقاليدها ، وإلا تعرض للخلع والطرد.

ولقد نفخت العصبية في أفرادها نيراناً لاهبة من اعتزاز بالنسب،فهم أفضل الناس،وآباؤهم أشرف آباء ، حتى أن الشاعر كان ينسى نفسه ويتصور أنه وقومه ملوك الدنيا المتصرفون الباطشون بلا رادع، وقد افتخروا بكثرة العدد والعدة، فكثرت المنافرات بينهم، وبالقوة والشجاعة ، بل بالجبروت والغطرسة وهي من أهم خصائص تلك الجاهلية..

ولقد وجدنا خلال دراستنا للشعر الجاهلي شواهد كثيرة في هذا الشأن.

**2- العادات والتقاليد:** وكان للتقليد عندهم سطوة الدين والمعتقد ، فلا يستطيع الفرد مهما أوتي من مكانة أن يخرج عليها ، لقد تاهوا في ضلالات الجهالة والتقليد ، وعطلوا فكرهم وعقولهم ، ولذلك سفه الإسلام أحلامهم وحاول تحرير عقولهم ، حتى تمكن من تخليصهم من رواسبها.

**3- التفرق والشتات:** لم يعرف العرب وحدة سياسية في تاريخهم الجاهلي ، حتى أن الإمارات التي تشكلت كانت لا تزيد عن كونها قبائل متصارعة مع أمثالها ، ولم تنفذ إلى فكرة الأمة أو الجنس ، بحيث يجمعون العرب تحت لواء واحد ، إنما اتخذت صورة اتحاد قبلي له رئيس ليس غير.
لقد كوَّن المناذرة والغساسنة إمارتين اصطنعتهما فارس والروم لضرب القبائل العربية الأخرى في الجزيرة ، وكثيراً ما وقعت الحروب الطاحنة بين هاتين الإمارتين. ولقد أدتا دورهما في خدمة سادتهما خير أداء من بطش بالقبائل العربية ، وقتل وتخريب..
وفى مؤتة حارب مع الروم من قبائل العرب مثل : لخم وجذام وبلي وغيرهم ما يزيد عن مائة ألف بالإضافة إلى مثلهم من الروم (1).
أما إمارة كندة ، ومدن الحجاز ، فما كانت إلا تجمعات قبلية سكنت الحاضرة ولم تخرج على عادات القبائل وصراعاتها.
**4- الحروب والأيام:** إن العربى في البادية شجاع، يفضل الموت تحت ظلال السيوف، على حياة الذل والضيم ، فحياته حرب ضروس لا تهدأ، وقد زخرت موضوعات الشعر في تصويرها كما مر معنا في الأعداد السابقة، إذ مدح الشعراء الشجاعة والشجعان، والفروسية والفرسان ، والحياة للقوي ، وهذا ما عبر عنه زهير إذ يقول:
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
وكثر الهجاء وشارك في المعارك مصوراً الفرار والهزيمة ، وبكى الشعراء قتلاهم ، وندبت النساء الموتى ، وعرف الشعر العربى عدداً من أصحاب المراثي..
**آثار الحرب:** وكان من آثارها كثرة الأسرى والسبايا ، وما رافق ذلك من تأريث للعداوة ، ومحاولات مستمرة لتخليص الأسرى والسبايا.
أما عادة الثأر فقد كانت متأصلة في نفس العربي وكثيراً ما سببت حروباً لا تنطفئ ، ولم تمنع القرابة من الثأر بين أفراد القبيلة الواحدة.
وقد تلجأ القبائل في هذه البيئة الحربية ، التي يشع فيها الفزع والهول ، إلى التحالف مع القبائل الأخرى لترد عن نفسها العدوان.
ولقد صورت لنا **أيام العرب** هذه الحياة الحربية ، وذلك الصراع الدامي ، وإذا تصفحت الجزء الأول من كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير مثلاً يهولك هذا الجو الصاخب من الحروب والضغائن.
إنها الجاهلية بكل مقوماتها ، انطلقت صاخبة لا تقف عند حد ، مادامت لا تحتكم إلى دين ، وإنما تتبع ما وجدت عليه الآباء والأجداد..
لقد كان العربي فيٍّ وثنيته مستعبداً لعدد من الأرباب والمعبودات ، فبالإضافة إلى عبادة الأصنام والكواكب كان الفرد ينصاع إلى استعباد القبيلة والعرف ، والعادة ، ثم إلى الهوى والشهوات..

## كلمة في المنهج:

فى القسم الأول من هذه الدراسة ، كنت قد اعتمدت على الشعر الجاهلي ؛ لأنه خير مصدر لتصوير حياة العرب في تلك الفترة ، إذ قد اهتم به علماء اللغة تدويناً ودراسة ، أكثر من اهتمام المؤرخين ، فدراستهم كانت ظنية تعتمد على الحدس والتخمين ، أو دراسة الآثار..
وفى هذا القسم كان اعتمادي على القرآن الكريم؛ لأنه صور حياة الجاهلية تصويراً دقيقاً، حياً معبراً بالأحداث، والـسـنـة الـنـبـويـة الـمـطـهـرة -وصراع النخبة المؤمنة مع ذويهم ومـعـاصـريهـم - حيث صورت هذا الصراع كتب السيرة والتراجم، ثـم شـعـراء الـدعــوة الإسلامية في صدر الإسلام.
إننا نعيش الآن في غربة ، غربة جديدة للإسلام ، تجعل محاولة العودة صعبة وشاقة ، وفيها عنصر الجدة.. لابد من عودة جادة إلى المنابع الأولى الصافية ، منابع العقيدة ، ودراسة السنة وكيف ربى الرسول - صلى الله عليه وسلم - أصحابه
قال - صلى الله عليه وسلم - : »بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء« أخرجه مسلم.
»لقد دار الزمن دورته وعاد الإسلام كما بدأ ، كما أخبر بذلك الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، هذه الغربة تجعل محاولة العودة كأنها جولة جديدة... وسيتوفر لها عنصر الجدة... فيكون حافزاً لها على بلوغ القمة« (2).
وفي سبيل هذه العودة نتلمس المنهج في طريقة تربية الجماعة الأولى ، جماعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وكيف كانت من الاستعلاء بإيمانها على حياة التمزق والتيه والضياع... إن حياة الإلف والعادة للمسلم قد تجعله ينقض عرى الدين ، يروى أن عمر - رضي الله عنه - قال: »ينقضُ الإسلام عروة عروة ؛ إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية«.
ومن أجل خطوة في طريق التربية الإيمانية ، ومن أجل العبرة ، ومقارنة الواقع بما فيه ، مع ماضي هذه الأمة الناصع ، بعد جاهلية مظلمة ، نقدم هذه الدراسة..
وسوف أركز الحديث حول **المباحث التالية:**
**1 - التربية العقدية:** ودورها في تربية الجماعة الأولى.
**2-العصبية القبلية:** وكيف عمل الإسلام على تذويبها.
**3-وحدة الأمة:** بعد التفرق و الشتات.
**4 - اتباع التقاليد وتحكيم الأهواء.**
**5-الجهاد في سبيل الله:** بعد الحروب الدامية.

## أولاً - التربية العقدية:

كيف واجه الإسلام الجاهلية؟ كيف انتشل العرب من أوضارها ؛ كيف رباهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى ينخلصوا من القيم التي كانوا يقدسونها والعادات التي كانوا يخضعون إليها؟.
للإجابة على هذه الاستفسارات لابد من العودة إلي منهج التربية الذي ربى عليه محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - أصحابه فهو قدوتنا ، وواجب علينا أن نتبع منهجه ((لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)).

### أ-طريقة الإسلام في التربية: (التوحيد الخالص).

كانت البداية الأولى في التربية هي تصحيح العقيدة في الله ، ومنذ اللحظة الأولى ، منذ أن يعلن المسلم (لا إله إلا الله محمد رسول الله) يصبح انتماء المسلم لدينه ، ويتبرأ بعدها من كل معبود أو متبوع أو مطاع سوى الله (3).
((فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ ويُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَى)) [البقرة: 256].
وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: »إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء ، مؤمن تقي أو فاجر شقي ، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم ، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن«(4).
بهذا التصوير والتنفير ، بدأ الرسول - صلى الله عليه وسلم - ينفر أصحابه من رواسب الجاهلية ومفاخرها وعصبياتها
»لقد كان الرجل حين يدخل في الإسلام يخلع على عتبته ماضيه في الجاهلية ، كان يشعر في اللحظة التي يجيء فيها إلى الإسلام ، أنه بدأ عهداً جديداً ، منفصلاً كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية.. كان يقف منها موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف الذي يحس أن كل هذا رجس لا يصلح للإسلام ، وبهذا الإحساس كان يتلقى هدي الإسلام..« (5).
نعم هكذا كان مفهوم التوحيد يسيطر على مشاعر المسلم فيتحول إلى واقع حي متحرك ، يملأ عليه شغاف قلبه ، بعيداً عن المفاهيم الذهنية المجردة ، والمعرفة العقلية البحتة ، كما يحلو لبعض الناس أن يفهموا التوحيد في عصور التقهقر والتبعية.
إنّ »المعرفة النظرية الذهنية الباردة الميتة شيء ، والمعرفة الحية التي تنبع من الوجدان فتنفعل بها النفس كلها ، وتعطي تأثيراً معيناً في السلوك الواقعي شيء آخر ، هي ما يطلبه الإسلام بالذات ويستنبته في قلوب المسلمين ليصبحوا مسلمين«.
»والحادث الآن في الأجيال القائمة هو هذه الجهالة بالمعنى الحقيقي للا إله إلا الله.. وصلتها الوثيقة التي لا تنفصم بالحكم بما أنزل الله«.

»وعندما تستقر هذه الحقيقة في الأذهان ينبغي أن تعمل على تحويل حياتنا كلها لتستقيم على منهج الله في كل شيء: في سياسة الحكم ، في سياسة المال ، في سياسة المجتمع..«(6).
إن المسلم إذا تمكنت عقيدة التوحيد وحقيقة لا إله إلا الله من نفسه لابد أن يتبرأ من المشركين وما هم عليه.
»إنه لا يستقيم للإنسان إسلام -ولو وحد الله وترك الشرك - إلا بعداوة المشركين والتصريح لهم بالعداوة (7) ، كما قال تعالى: ((لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ ورَسُولَهُ)) [المجادلة 22].
وفي الصحيحين: »أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: »أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم ؛ إلا لحق الإسلام وحسابهم على الله«.
قال أبو بكر - رضى الله عنه- : »إن الزكاة من حقها ، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم على منعه« (8).
"إن بني حنيفة من أشهر أهل الردة وأعظمهم كفراً وهم مع هذا يشهدون. أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويؤذنون ويصلون ...«(9).
»ولو كانت كلمة لا إله إلا الله مجرد كلمة لقالتها قريش في الجاهلية ، إلا أنها تعلم أن لها مقتضياتها.. فكفار مكة قد علموا مراد النبي - صلى الله عليه وسلم - من هذه الكلمة (لا إله إلا الله) فأبوا واستكبروا ولم ينفعهم إيمانهم بأن الله واحد رازق محي مميت (توحيد الربوبية دون توحيد الألوهية) ولما قال لهم النبي : قولوا: لا إله إلا الله ، قالوا: ((أَجَعَلَ الآلِهَةَ إلَهاً واحِداً إنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)) [ص: 5] (10).
إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - عمل على اجتثاث نخوة الجاهلية وتعلق قلوب العرب بها ، في أحاديثه الشريفة ، وخطبه الكريمة.. فها هو يضع بعد فتح مكة كل مآثر الجاهلية تحت قدميه: »ألا كل مأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج..« (11).
وفي فصل لا إله إلا الله منهج حياة يتحدث المرحوم سيد قطب عن هذا المفهوم إذ يقول: »ومن ثم تصبح شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها فلا تقوم هذه الحياة قبل أن تقوم هذه القاعدة ، كما أنها لا تكون حياة إسلامية إذا قامت على غير هذه القاعدة« (12).
((إنِ الحُكْمُ إلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ)) [يوسف: 40].
إن الإصرار على صفاء التوحيد ، ونقاء العقيدة ، مع انتزاع رواسب الجاهلية ، كان من أهم مقومات التربية المحمدية في دار الأرقم ، ومدينة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وما تزال هي الطريق الوحيدة ، لكل تربية جادة لا

تريد العبث واللهو والتسول على فتات الشرق والغرب ، باسم الإسلام ، وضغوط العصر الحاضر ومدنيته المادية..

**ب - الحب في الله والبغض في الله:**

لقد تشكل المجتمع الوليد في مكة المكرمة ، على أنقاض مجتمع الجاهلية ، واكتملت صورة هذا المجتمع الإسلامي بعد الهجرة إلى المدينة المنورة...
تشكل مجتمع العقيدة ، على الحب بين المؤمنين والأخوة بين المسلمين إن الحب بين المؤمنين هو الذي كان »يحرك حياة المؤمن كلها.. هو مفتاح التربية الإسلامية ونقطة ارتكازها ومنطلقها الذي تنطلق« »والأخوة هنا.. حيث لم تكن هناك -أي في الجاهلية -.. إنها الأخوة.. إنه الترابط الصادق.. كانت الخطوة الأولى في التربية هي حب الله ورسوله، والخطوة الثانية هي الالتقاء على حب الله ورسوله« »يلتقي الناس على العقيدة في الله.. لأن كلاً منهم يحب الله ورسوله فلا تكون ذواتهم بارزة.. إنما يكون الجانب البارز هو الحب.. بل إن الإنسان المؤمن يحب أن يؤثر أخاه على نفسه.. وذلك من معجزات العقيدة ومعجزات التربية على العقيدة ((وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)) [الحشر 9].
»وكان يغيظ قريشاً ويثير عجبها محبة أصحاب محمد لمحمد حتى قال أبو سفيان: »ما رأيت أحداً يحبه الناس كحب أصحاب محمد محمداً« (13).
إن هذه المحبة بين المؤمنين من لوازم لا إله إلا الله ، والبراء من المشركين من لوازمها أيضاً (14).
يقول تعالى: ((لا يَتَّخِذِ المُؤْمِنُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ المُؤْمِنِينَ ومَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ)) [آل عمران : 28].
وقال - عليه الصلاة والسلام-: »أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله المعاداة في الله والحب في الله والبغض في الله« (15).
وما رواه الإمام إحمد عن جرير بن عبد الله البجلي أن رسول الله بايعه على أن : »تنصح للمسلم وتبرأ من الكافر« (16).
وفي صحيح البخاري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: »المرء مع من أحب« (17).
»إن أصل الموالاة الحب ، وأصل المعاداة البغض ؛ وينشأ عنهما من أعمال القلوب والجوارح ما يدخل في حقيقة الموالاة والمعاداة.. كالنصرة والأنس والمعاونة والجهاد والهجرة ونحو ذلك« (18).
»ويتضح مما سبق أن الولاء في الله هو محبة الله ونصرة دينه ، ومحبة أوليائه ونصرتهم ، والبراء هو البغض لأعداء الله ومجاهدتهم..« (19).
إن موالاة المشركين خطيرة ، ما كان الجيل الأول يقترب منها ، وإن موالاة المؤمنين ومحبتهم من علامات الإيمان ، ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة

قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : »إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي ، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي« (20).

**دعوة الأنبياء:**

وهذه هي دعوة الرسل جميعاً ، توحيد خالص ، كلمة واحدة يرددها كل رسول: »لا إله إلا الله اعبدوا الله ما لكم من إله غيره«.

وبراءة خالصة من الشرك في جميع أشكاله. وهذا أبو الأنبياء إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - يتبرأ من عبادة قومه:

((قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إبْرَاهِيمَ والَّذِينَ مَعَهُ إذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ ومِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ)) [سورة الممتحنة: 4].

ولابد أن نتأسى بخاتم الأنبياء والرسل محمد - صلى الله عليه وسلم - : ((لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)) [الأحزاب:21]، فرسول الله وإخوانه الأنبياء - عليهم أفضل الصلاة والسلام - كانوا نماذج الهدى لجميع الناس في كل أمر من أمور حياتهم ومماتهم، وأوجب الله طاعتهم واتباع أوامرهم ، قال تعالى: ((ومَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إلاَّ لِيُطَاعَ بِإذْنِ اللَّهِ)) [النساء: 64] (21).

**الهوامش :**

1 - البداية والنهاية لابن كثير: 4/243.
2 - منهج التربية الإسلامية:2/19 للأستاذ محمد قطب.
3 - انظر كتاب الولاء والبراء ط: أولى. د. محمد سعيد القحطاني ، ص 104.
4 - سنن أبي داود كتاب الأدب ه /340 ، 5116 ، وأخرجه الترمذي في المناقب ، وقال : حدبث حسن.
5 -معالم في الطريق: سيد قطب ، ص 19 - 20.
6 -منهج التربية الإسلامية: محمد قطب 2/28 ، 83.
7 - انظر مجموعة التوحيد ، وستة مواضع من مقدمة مختصر السيرة النبوية للشيخ محمد بن عبدالوهاب.
8 ، 9 - انظر مختصر السيرة النبوية للشيخ محمد عبد الوهاب ص 30، 32.
10 - المرجع السابق.
11 - المرجع السابق ، ص 146.
12 - معالم في الطريق ، ص 92.
13- منهج التربية الإسلامية ، ج 2 ، ص 37 ، 38 ، 41 ، 42.
14 - انظر الولاء والبراء: د. القحطاني ص40 ، 60.
15 - انظر الجامع الصغير 2/343 ح 2536. وقال الألباني: حديث حسن.
16- المسند للإمام أحمد ج4/ 357.
17- فتح الباري ، كتاب الأدب ، 10/557، ح 6168.
18- الرسائل المفيدة للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ نقلاً عن الولاء والبراء للدكتور محمد سعيد القحطاني ، ص 40.

19- انظر الولاء والبراء ، ص 43 وهو كتاب جيد في هذا الموضوع ، يحسن الرجوع إليه.
20 - صحيح مسلم ، كتاب البر ، ج 4 ، ح2566.
21 - انظر :منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله ، ج1.

## نصيحة من عالم لخليفة

أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضي(*)

يا أمير المؤمنين، إن الله، وله الحمد، قد قلدك أمراً عظيماً؛ ثوابه أعظم الثواب، وعقابه أشد العقاب. قلدك أمر هذه الأمة، فأصبحت وأمسيت وأنت تبني لخلق كثير قد استرعاكهم الله، وائتمنك عليهم ، وابتلاك بهم ، وولاك أمرهم ، وليس يلبث البنيان إذا أسس على غير التقوى أن يأتيه الله من القواعد ، فيهدمه على من بناه ، وأعان عليه. فلا تضيعن ما قلدك الله من أمر هذه الأمة والرعية ، فإن القوة في العمل بإذن الله.

* لا تؤخر عمل اليوم إلى غد ، فإنك إذا فعلت ذلك أضعت.
* إن الأجل دون الأمل ، فبادر الأجل بالعمل ، فإنه لا عمل بعد الأجل.
* إن الرعاة مؤدون إلى ربهم ما يؤدي الراعي إلى ربه. فأقم الحق فيما ولاك الله وقلدك ولو ساعة من نهار ، فإن أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راع سعدت به رعيته.
* ولا تزغ ؛ فتزيغ رعيتك.
* وإياك والأمر بالهوى ، والأخذ بالغضب.
* وإذا نظرت إلى أمرين أحدهما للآخرة والآخر للدنيا ، فاختر أمر الآخرة على أمر الدنيا ، فإن الآخرة تبقى ، والدنيا تفنى.
* وكن من خشية الله على حذر ، واجعل الناس عندك في أمر الله سواء القريب والبعيد ، ولا تخف في الله لومة لائم. واحذر فإن الحذر بالقلب ، وليس باللسان ، واتق الله فإنما التقوى بالتوقي ، ومن يتق الله يقيه.
* واعمل لأجَلٍ مفضوض وسبيل مسلوك ، وطريق مأخوذ ، وعمل محفوظ ، ومنهل مورود ، فإن ذلك المورد الحق ، والموقف الأعظم الذي تطير فيه القلوب ، وتنقطع فيه الحجج لعزة ملك قهرهم جبروته ، والخلق له داخرون بين يديه ، ينتظرون قضاءه ، ويخافون عقوبته ، وكأن ذلك قد كان. فكفى بالحسرة والندامة يومئذ في ذلك الموقف العظيم لمن علم ولم يعمل ، يوم تزل فيه الأقدام ، وتتغير فيه الألوان ، ويطول فيه القيام ، ويشتد فيه الحساب. يقول الله تبارك وتعالى في كتابه: ((وَإنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ)) ، وقال تعالى: ((هَذَا يَوْمُ الفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ والأَوَّلِينَ)) وقال تعالى: ((إنَّ يَوْمَ الفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ))، وقال تعالى: ((كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ)) ، وقال: ((كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إلاَّ

عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا)). فيالها من عثرة لا تقال ، ويالها من ندامة لا تنفع ، إنما هو اختلاف الليل والنهار: يبليان كل جديد ، ويقربان كل بعيد ، ويأتيان بكل موعود ، ويجزي الله كل نفس بما كسبت إن الله سريع الحساب.
* فالله الله ، فإن البقاء قليل ، والخطب خطير ، والدنيا هالكة وهالك من فيها ، والآخرة هي دار القرار. فلا تلق الله غداً وأنت سالك سبيل المعتدين ، فإن ديان يوم الدين إنما يدين العباد بأعمالهم ، ولا يدينهم بمنازلهم.
وقد حذرك الله فاحذر ، فإنك لم تخلق عبثاً ، ولن تترك سدى. وإن الله سائلك عما أنت فيه وعما عملت به ، فانظر ما الجواب.
واعلم أنه لن تزول غداً قدما عبد بين يدي الله تبارك وتعالى إلا من بعد المسئلة ؛ فقد قال - صلى الله عليه وسلم - :
»لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن علمه ما عمل فيه ، وعن عمره فيم أفناه ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه ، وعن جسده فيم أبلاه« ، فأعدد - يا أمير المؤمنين - للمسئلة جوابها، فإن ما عملت فأثبتَّ فهو عليك غداً يقرأ ، فاذكر كشف قناعك فيما بينك وبين الله في مجمع الأشهاد.
وإنى أوصيك - يا أمير المؤمنين - بحفظ ما استحفظك الله ، ورعاية ما استرعاك الله ، وأن لا تنظر في ذلك إلا إليه وله. فإنك إن لا تفعل تتوعر عليك سهول الهدى ، وتعمى في عينك وتتعفى رسومه ، ويضيق عليك رحبه ، وتنكر منه ما تعرف ، وتعرف منه ما تنكر ، فخاصم نفسك خصومة من يريد الفلج (1) لها لا عليها ، فإن الراعي المضيع يضمن ما هلك على يديه مما لو شاء رده عن أماكن الهلكة بإذن الله ، وأورده أماكن الحياة والنجاة. ، فإذا ترك ذلك أضاعه ، وإن تشاغل بغيره كانت الهلكة عليه أسرع ، وبه أضر ، وإذا أصلح كان أسعد من هنالك بذلك ، ووفاه الله أضعاف ما وفى له.
فاحذر أن تضيع رعيتك ، فيستوفي ربها حقها منك ، ويضيعك - بما أضعت - أجرك ، وإنما يدعم البنيان قبل أن ينهدم. وإنما لك من عملك ما عملت فيمن ولاك الله أمره ، وعليك ما ضيعت منه ، فلاتنس القيام بأمر من ولاك الله أمره ، فلست تُنسى ، ولا تغفل عنهم وعما يصلحهم ، فليس يُغفل عنك. ولا يضيع حظك من هذه الدنيا في هذه الأيام والليالي كثرة تحريك لسانك في نفسك بذكر الله تسبيحاً وتهليلاً وتحميداً ، والصلاة على رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، نبي الرحمة ، وإمام الهدى - صلى الله عليه وسلم -.
وإن الله بمنه ورحمته جعل ولاة الأمر خلفاء في أرضه ، وجعل لهم نوراً يضيء للرعية ما أظلم عليهم من الأمور فيما بينهم ، ويبين ما اشتبه من الحقوق عليهم. وإضاءة نور ولاة الأمر إقامة الحدود ، ورد الحقوق إلى أهلها بالتثبت والأمر البين.
وإحياء السنن التي سنها القوم الصالحون أعظم موقعاً ، فإن إحياء السنن من الخير الذي يحيا ولا يموت.

وجور الراعي هلاك للرعية، واستعانته بغير أهل الثقة والخير هلاك للعامة.
فاستتم ما أتاك الله - يا أمير المؤمنين - من النعم بحسن مجاورتها ، والتمس الزيادة فيها بالشكر عليها ، فإن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز : ((لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ولَئِن كَفَرْتُمْ إنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)).
وليس شيء أحب إلى الله من الإصلاح ، ولا أبغض إليه من الفساد ، والعمل بالمعاصي كفر بالنعم ، وقلّ من كفر من قوم قط النعمة ثم لم يفزعوا إلى التوبة إلا سلبوا عزهم ، وسلط الله عليهم عدوهم. وإنى أسأل الله - يا أمير المؤمنين - الذي منَّ عليك بمعرفته فيما أولاك ، أن لا يكلك في شيء من أمرك إلى نفسك ، وأن يتولى منك ما تولى من أوليائه وأحبائه ، فإنه ولي ذلك والمرغوب إليه فيه.
وقد كتبت لك ما أمرت به ، وشرحته لك ، و بينته ، فتفقهه ، وتدبره ، وردد قراءته حتى تحفظه، فإني قد اجتهدت لك في ذلك ولم آلك والمسلمين نصحاً ، ابتغاء وجه الله وثوابه وخوف عقابه.
وإني لأرجو - إن عملت بما فيه من البيان - أن يوفر الله خراجك من غير ظلم مسلم ولا معاهد، ويصلح لك رعيتك، فإن صلاحهم بإقامة الحدود عليهم، ورفع الظلم عنهم، والتظالم فيما اشتبه من الحقوق عليهم. وكتبت لك أحاديث حسنة ، فيها ترغيب وتحضيض على ما سألت عنه، مما تريد العمل به إن شاء الله. فوفقك الله لما يرضيه عنك، وأصلح بك ، وعلى يديك.

**الهوامش :**

* أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري ، الكوفي ، البغدادي صاحب الإمام أبي حنيفة، وتلميذه، وأول من نشر مذهبه ، كان فقيهاً علآمة ، من حفاظ الحديث، واسع العلم بالتفسير والمغازي وأيام العرب ، ولي القضاء أيام المهدي والهادي والرشيد ومات في خلافته ببغداد وهو على القضاء. ومن كتبه المطبوعة: الخراج ، والآثار (وهو مسند أبي حنيفة).

1 - الفَلَج : الانتصار.

# وإذا قلتم فاعدلوا

بقلم: عبد العزيز بن ناصر السعد

**أهمية الموضوع:**

إن أهمية هذا الموضوع تأتي من أنه مفتاح الحق وجامع الكلمة، والمؤلف بين القلوب، لأن من أقوى أسباب الاختلاف بين العباد هو الظلم والاعتداء وفقدان العدل والإنصاف. ولو جاهد المسلم نفسه لتحقيق صفة العدل على نفسه ومع الناس فإن كثيراً من المشاكل التي تحصل بين المسلمين سواء منها الفردية أو الجماعية ستزول وتحل بإذن الله.

وذلك لأن سبب الانحراف عن الحق والإصرار على الأخطاء إما الجهل وإما الظلم، فالجهل علاجه العلم ، والظلم علاجه العدل والإنصاف والقسط .
ولقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - كثيراً ما يرجع أسباب الفرقة والتعدي والتعصب إلى الأمرين المذكورين سابقاً ، فتراه يقول:
"الإنسان خلق ظلوماً جهولاً، فالأصل فيه عدم العلم، وميله إلى ما يهواه من الشر، فيحتاج دائماً إلى علم مفصل يزول به جهله وعدل في محبته وبغضه ، ورضاه وغضبه ، وفعله وتركه، وإعطائه ومنعه، وأكله وشربه ، ونومه ويقظته ، وكل ما يقوله ويعمله يحتاج فيه إلى علم ينافي جهله، وعدل ينافي ظلمه ، فإن لم يمن الله عليه بالعلم المفصل والعدل المفصل ؛ وإلا كان منه من الجهل والظلم ما يخرج به من الصراط المستقيم ، وقد قال تعالى لنبيه - صلى الله عليه وسلم- بعد صلح الحديبية وبيعة الرضوان: ((إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً)) إلى قوله تعالى ((ويَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً)) ، فإذا كان هذه حاله في آخر حياته أو قريباً منها فكيف حال غيره" أهـ (1).

**ويقول رحمه الله:**

"والعدل هو الاعتدال ، والاعتدال هو صلاح القلب ، كما أن الظلم فساده ، ولهذا جميع الذنوب يكون الرجل فيها ظالماً لنفسه ، والظلم خلاف العدل ، فلم يعدل على نفسه بل ظلمها ، فصلاح القلب بالعدل ، وفساده في الظلم ، وإذا ظلم العبد نفسه فهو الظالم والمظلوم ، كذلك إذا عدل فهو العادل والمعدول عليه ، فمنه العمل ، وعليه تعود ثمرة العمل من خير وشر ، قال تعالى: ((لَهَا مَا كَسَبَتْ وعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ))
إلى أن قال في نفس الجزء ص 99:
"مع أن الاعتدال المحض السالم من الإخلاص لا سبيل إليه ، لكن الأمثل فالأمثل، فهكذا صحة القلب وصلاحه في العدل ومرضه من الزيغ والظلم والإعراض والعدل المحض في كل شيء متعذر علماً وعملاً ، ولكن الأمثل فالأمثل. ولهذا يقال: هذا أمثل، ويقال للطريق السلفية: الطريقة المثلى.
وقال تعالى: ((ولَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ ولَوْ حَرَصْتُمْ)) [الأنعام 152] وقال تعالى: ((وأَوْفُوا الكَيْلَ والْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إلاَّ وسْعَهَا))، والله تعالى أرسل الرسل وأنزل الكتب ليقوم الناس بالقسط.
وأعظم القسط عبادة الله وحده لا شريك له ، ثم العدل على الناس في حقوقهم ، ثم العدل على النفس. أهـ (2).
وهنا نرى أن شيخ الإسلام قد بين أهمية العدل ، وأنه أساس النجاة في الدنيا والآخرة ، وقد قسمه حسب الأهمية إلى أعظم العدل وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، ثم العدل على الناس ، ثم العدل على النفس وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله في ثنايا هذا البحث.

وقد ذكر شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى- أيضاً أهمية العدل مع الخصوم والمفارقين لأهل السنة حيث يقول:
"وأهل السنة والعلم والإيمان يعلمون الحق ، ويرحمون الخلق ، ويتبعون الرسول -صلى الله عليه وسلم-، ولا يبتدعون، ومن اجتهد فأخطأ خطأ يعذره فيه الرسول -صلى الله عليه وسلم- عذروه.. إلى أن قال: والله يحب الكلام بعلم وعدل ، ويكره الكلام بجهل وظلم ، كما قال النبي- صلى الله عليه وسلم-: " القضاة ثلاثة. قاضيان في النار وقاضٍ في الجنة ، رجل قضى للناس على جهل فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى خلافه فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة " ، وقد حرم سبحانه وتعالى الكلام بلا علم مطلقاً ، وخص القول عليه بلا علم بالنهي؛ فقال تعالى: ((ولا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنَّ السَّمْعَ والْبَصَرَ والْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً )) وقال تعالى: ((قُلْ إنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ومَا بَطَنَ والإثْمَ والْبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ وأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ)) وأمر بالعدل على أعداء المسلمين فقال تعالى:((كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى))" (3).
إذن مما سبق ذكره من كلام شيخ الإسلام يتبين لنا أهمية العدل في القول والعمل وأن الأمانة التي عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال وأشفقن منها لا يستطيع أن يحملها الإنسان إلا بأن يتغلب على صفة الجهل بالعلم والتفقه في دين الله عز وجل ، وبأن يتغلب على صفة الظلم بالعدل والإنصاف ، ومع ذلك - كما أشار شيخ الإسلام - فلن يستطيع أن يكمل العدل كله ولا أن ينفك عن الجهل كله ، وكذلك فهو في حاجة لأن يتوب الله عليه ويغفر له تقصيره وضعفه ، وهذا هو ما يفهم من آية الأمانة في سورة الأحزاب حيث ذكر الله عز وجل لنا صنفين من الناس:
**الصنف الأول:** المؤمنون الذين بذلوا جهدهم في طلب العلم المنافي للجهل ، والعدل المنافي للظلم ، فاستحقوا من الله عز وجل أن يتوب عليهم ما لم يستطيعوا تحقيقه من العلم والعدل.
**الصنف الثانى:** أولئك المشركون المنافقون الذين أعرضوا عن دين الله عز وجل فلم يتعلموه ، وأعرضوا عن العدل والقسط فأركسوا في ظلمات الجهل والظلم ، ووقعوا في الشرك والنفاق فاستحقوا العذاب الأليم. يقول الله تعالى: ((إنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ والْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وأَشْفَقْنَ مِنْهَا وحَمَلَهَا الإنسَانُ إنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (72) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ المُنَافِقِينَ والْمُنَافِقَاتِ والْمُشْرِكِينَ والْمُشْرِكَاتِ ويَتُوبَ اللَّهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ والْمُؤْمِنَاتِ وكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً)) [سورة الأحزاب: 72 - 73].

نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من الذين أعانهم على حمل الأمانة وغفر لهم تقصيرهم.

## تعريف العدل ومنزلته في الكتاب والسنة:

قال في لسان العرب: العدل: ما قام في النفوس أنه مستقيم ، وهو ضد الجور. عدل الحاكم في الحكم يعدل عدلاً ، وهو عادل من قوم عدول.. وفي أسماء الله الحسنى (العدل) وهو الذي لا يميل به الهوى فيجور في الحكم.
والعدل: الحكم بالحق. وكتب عبد الملك إلى سعيد بن جبير يسأله عن العدل فأجابه: إن العدل على أربع أنحاء: العدل في الحكم ، قال الله تعالى: ((وإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ)) ، والعدل في القول ؛ قال تعالى: ((وإذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا)) ، والعدل في الفدية ؛ قال تعالى: ((لا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ))، والعدل في الإشراك ؛ قال تعالى: ((ثُمَّ الَذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)) ، أي: يشركون.
وفلان يعدل فلاناً: أي يساويه ، وعدّل الموازين والمكاييل: ساواها ، وتعديل الشيء: تقويمه ، والاعتدال: توسط حال بين حالين في كم وكيف ، كقولهم: جسم معتدل ، من الطول والقصر ، وجو معتدل، من الحر والبرد.. الخ ، والمعادلة. الشك في أمرين ، يقال: أنا في عدال في هذا الأمر ، أي: في شك منه أأمضي عليه أم أتركه. أهـ (باختصار).
والآيات والأحاديث الواردة في ذكر العدل والحث عليه والتحذير من ضده كثيرة جداً لكننا نقتصر على بعضها مع نقل أقوال علماء التفسير والحديث حولها.

## الآيات الواردة في ذلك:

## الآية الأولى:

يقول الله عز وجل في سورة آل عمران: ((شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إلَهَ إلاَّ هُوَ والْمَلائِكَةُ وأُوْلُوا العِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إلَهَ إلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ)) [آل عمران 18].
* يعلق شيخ الإسلام على قوله تعالى ((قَائِماً بِالْقِسْطِ)) ج 14 ص 179بقوله: " فإن الاستقامة والاعتدال متلازمان ، فمن كان قوله وعمله بالقسط كان مستقيماً ، ومن كان قوله وعمله مستقيماً كان قائماً بالقسط ، ولهذا أمرنا الله عز وجل أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وصراطهم هو العدل والميزان ليقوم الناس بالقسط والصراط المستقيم هو العمل بطاعته وترك معاصيه ، فالمعاصي كلها ظلم مناقض للعدل مخالف للقيام بالقسط والعدل"(4).
* ويعلق سيد قطب - رحمه الله - على هذه الآية في ظلال القرآن المجلد الأول ص 55 بقوله:
"وتدبير الله عز وجل لهذا الكون والحياة متلبس دائماً بالقسط وهو العدل ، فلا يتحقق العدل المطلق في حياة الناس ولا تستقيم أمورهم استقامة أمور

الكون التي يؤدي كل كائن معها دوره في تناسق مطلق مع دور كل كائن آخر.. لا يتحقق هذا إلا بتحكيم منهج الله الذي اختاره لحياة الناس وبينه في كتابه وإلا فلا عدل ولا قسط ولا استقامة ولا تناسق ولا تلاؤم بين دورة الكون ودورة الإنسان ، وهو الظلم إذن والتصادم والتشتت والصراع ".
إلى أن قال - رحمه الله - في الصفحة نفسها
"وأنه حيث حكم في حياة الناس منهج آخر من وضع البشر لازمه جهل البشر وقصور البشر ، كما لازمه الظلم والتناقض في صورة من الصور. ظلم الفرد للجماعة ، أو ظلم الجماعة للفرد ، أو ظلم طبقة لطبقة أو ظلم أمة لأمة أو جيل لجيل. وعدل الله عز وجل وحده هو المبرأ من الميل لأي من هؤلاء ، وهو إله جميع العباد ، وهو الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ((لا إلَهَ إلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ)). اهـ (5).

## الآية الثانية:

قوله عز وجل: ((يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ولَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ إن يَكُنْ غَنِياً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الهَوَى أَن تَعْدِلُوا وإن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً)) [سورة النساء:135].
يقول الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: " يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط ، أي بالعدل ، فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ولا يصرفهم عنه صارف ، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين ، يقول: (شُهَدَاءَ لِلَّهِ) كما قال تعالى: ((وأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ))، أي: أدوها ابتغاء وجه الله ، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقاً ، خالية من التحريف والتبديل والكتمان ، ولهذا قال: ((ولَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ))، أي: اشهد بالحق ولو عاد ضررها عليك ، وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه ولو عاد ضرره عليك ، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجاً ومخرجاً من كل أمر يضيق عليه ، وقوله: ((أَوِ الوَالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ)) ، أي: وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك ، فلا تراعهم فيها ، بل اشهد بالحق وإن عاد الضرر عليهم ، فإن الحق حاكم على كل أحد. وقوله: ((إن يَكُنْ غَنِياً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا))، أي: لا ترعاه لغناه ، ولا تشفق عليه لفقره ، فالله يتولاهما ، بل هو أولى بهما منك وأعلم بما فيه صلاحهما. وقوله:((فَلا تَتَّبِعُوا الهَوَى أَن تَعْدِلُوا))، أي: لا يحملنكم الهوى والمعصية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في أموركم وشؤونكم ، بل الزموا العدل على أي حال كان كما قال تعالى: ((ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى))، ومن هذا قول عبد الله بن رواحة لما بعثه الرسول -صلى الله عليه وسلم- على أهل خيبر يخرص عليهم ثمارهم وزروعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم فقال: والله لقد جئتكم من أحب الخلق إليَّ ولأنتم أبغض إليَّ من أعدادكم من

القردة والخنازير ، وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم ، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض " اهـ (6).
ويعلق سيد قطب (549/2) على الآية نفسها بقوله: "إنها أمانة القيام بالقسط على إطلاقه في كل حال وفي كل مجال. القسط الذي يمنع البغي والظلم في الأرض ، والذي يكفل العدل بين الناس ، والذي يعطي كل ذي حق حقه ، من المسلمين وغير المسلمين ، وفى هذا الحق يتساوى عند الله عز وجل المؤمنون وغير المؤمنين ، ويتساوى الأقارب والأباعد ، ويتساوى الأعداء والأصدقاء ، والأغنياء و الفقراء..
والمنهج الرباني يجند النفس في وجه ذاتها وفي وجه عواطفها تجاه ذاتها أولاً ((ولَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ)) وتجاه الوالدين والأقربين ثانياً ، وهي محاولة شاقة أشق بكثير من نطقها باللسان... " إلى أن قال: "ثم هو يجند النفس كذلك في وجه مشاعرها الفطرية.. أو الاجتماعية حين يكون المقصود له أو عليه فقيراً تشفق النفس من شهادة الحق ضده ، وتود أن تشهد له معاونة لضعفه. أو من يكون فقره مدعاة للشهادة ضده بحكم الرواسب الاجتماعية كما هو الحال في المجتمعات الجاهلية ، وحين يكون المشهود له أو عليه غنيا تقتضي الأوضاع الاجتماعية مجاملته أو قد يثير غناه وتبطره النفس ضده فتحاول أن تشهد ضده..

## الآية الثالثة:

قوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى واتَّقُوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)) [سورة المائدة:8].
يعلق سيد قطب - رحمه الله - على هذه الآية بقوله:
"لقد نهى الله عز وجل الذين آمنوا قبل أن يحملهم الشنآن لمن صدوهم عن المسجد الحرام على الاعتداء ، وكانت هذه قمة ضبط النفس والسماحة ، يرفعهم الله إليها بمنهجه التربوي الرباني القويم ، وهاهم أولاء ينهون أن يحملهم الشنآن على أن يميلوا عن العدل ، وهي قمة أعلى مرتقى وأصعب على النفس وأشق ، فهي مرحلة وراء عدم الاعتداء والوقوف عنده ، تتجاوز إلى إقامة العدل مع الشعور بالكره والبغض..) إلى أن قال - رحمه الله تعالى -: (إن النفس البشرية لا ترتقي هذا المرتقى قط إلا حين تتعامل في هذا الأمر مباشرة مع الله عز وجل حين تقوم لله متجردة عن كل ما عداه ، وحين تستشعر تقواه وتحسُّ أن عينه على خفايا الضمير وذات الصدور) اهـ باختصار (7).

## الآية الرابعة:

قوله تعالى: ((وإذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ولَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى)) [الأنعام:152].
يعلق سيد قطب - رحمه الله - على هذه الآية فيقول:

(وهنا يرتفع الإسلام بالضمير البشري - وقد ربطه بالله ابتداءً - إلى مستوى سامق رفيع على هدى من العقيدة في الله ومراقبته.. فهنا مزلة من مزلات الضعف البشري ، الضعف الذي يجعل شعور الفرد بالقرابة هو شعور التناصر والتكافل والامتداد ، بما أنه ضعيف ناقص محدود الأجل وفي قوة القرابة سند لضعفه وفى سعة رقعتها كمال لوجوده ، وإن امتدادها جيلاً بعد جيل حماية لامتداده ، ومن ثم يجعله ضعيفاً تجاه قرابته حين يقف موقف الشهادة لهم أو عليهم أو القضاء بينهم وبين الناس ، وهنا في هذه المزلة يأخذ الإسلام بيد الضمير البشري ليقول كلمة الحق والعدل على هدى من الاعتصام بالله وحده، ومراقبة الله وحده ، إكتفاءً به من مناجزة ذوي القربى وتقوى له من الوفاء بحق القرابة دون حقه وهو سبحانه أقرب إلى المرء من حبل الوريد)هـ(8).

أما الأحاديث الواردة في الحث على العدل وتجنب الظلم والبغي فكثيرة جداً نقتصر على بعضها:

### الحديث الأول:

ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - أنه قال: (نحلني أبي نحلاً ، فقالت أمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، فجاءه ليشهده على صدقتي فقال: أكل ولدك نحلت مثله؟ فقال: لا. فقال: اتقوا الله واعدلوا في أولادكم ، وقال: إني لا أشهد على جور. قال: فرجع أبي فرد تلك الصدقة (9)

### الحديث الثاني:

روى البخاري عن أبى هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "كل سُلامي من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس ، يعدل بين اثنين صدقة " (10).

### الحديث الثالث:

ثبت في الصحيحين عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال: (بايعنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على السمع والطاعة في: العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، وعلى أثرة علينا ، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله ، وعلى أن نقول الحق أينما كان ، لا نخاف في الله لومة لائم ) وزاد النسائى: (وعلى أن نقول بالعدل أين كنا)(11).

### الحديث الرابع:

روى الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "إن المقسطين عند الله على منابر من نور على يمين الرحمن - وكلتا يديه يمين - الذين يعدلون في حكمهم وأهلهم وما ولوا " ( 12).

### الحديث الخامس:

روى النسائي والحاكم في مستدركه عن عمار بن ياسر - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يدعو بهذا الدعاء: " اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق ، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي ، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق والعدل في الغضب والرضى ، وأسألك القصد في الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، وأسألك الشوق إلى لقائك ، في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين "(13).

## أقسام العدل:

ينقسم العدل حسب متعلقاته إلى الأقسام التالية:

### 1-أعظم العدل:

وهو توحيد الله عز وجل لا شريك له ، وهو الحق الذي قامت به السموات والأرض ، ومن أجله خلق الله الخلق ، قال الله عز وجل:((وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (38) مَا خَلَقْنَاهُمَا إلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ)) [الدخان:38 - 39]. وقال تعالى:((مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ)) [الأحقاف: 3].

ويقابل هذا القسم من العدل: أعظم الظلم ، وهو الإشراك بالله عز وجل ، والكفر به ، حيث قال الله عز وجل: ((وَإذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)) [لقمان:13]. ومثله قول الله تعالى: ((الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ)) [الأنعام:82]. وقوله تعالى: ((وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ)) [سورة البقرة:254].

### 2 -العدل مع النفس:

ويدخل في هذا العدل: قيامه بالأمانة التي كلفه الله عز وجل بها ، وذلك فيما بين العبد وربه من الالتزام بأوامره واجتناب نواهيه من غير إفراط ولا تفريط ، ويقابل هذا القسم من العدل: ظلم العبد لنفسه بارتكابه ما حرم الله عز وجل - مما هو دون الشرك - ، أو تركه ما أمر الله عز وجل مما يتعلق به نفسه ، ولا يتعدى إلى غيره ، وهذا النوع من الظلم من أخف أنواع الظلم ؛ حيث إن صاحبه قد يتوب منه فيتوب الله عليه ، ولو مات عنه بدون توبة فإنه تحت المشيئة ، بينما الظلم العظيم -وهو الشرك بالله - لو مات عليه فلن يغفر الله له ، كما قال تعالى: ((إنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ)) [النساء:48]. وهو أخف من ظلم العباد ؛ لأنه يشترط في التوبة من ظلم العباد رد الحقوق إلى أهلها واستباحتهم منها.

### 3-العدل مع العباد:

وهذا النوع من العدل هو الذي يهمنا في هذا البحث ، والقسمان السابقان ليس هنا موضع تفصيلهما ، ويقابل هذا القسم من العدل ظلم العباد واعتداء بعضهم على بعض ، سواء في القول أو الفعل، وسنذكر في هذا القسم - إن شاء الله - بعض مقتضيات ولوازم هذا العدل، مع الإشارة في أثناء ذلك إلى بعض المواقف المؤسفة التي تنافي العدل والإنصاف ، مع ذكر المنهج الشرعيّ الذي ينبغي سلوكه حيال هذه ا لمواقف.
ويحسن بنا قبل ذكر هذه اللوازم أن نقدم لها بكلام نفيس للإمام ابن القيم - رحمه الله - في مدارج السالكين حول (منزلة الخلق). يقول - رحمه الله -:
(وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان ، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر ، العفة ، الشجاعة، العدل.
فالـصـبر: يحـمـله على الاحتمال، وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم، والأناة، والرفق، وعدم الطيش والعجلة.
والعفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل ، وتحمله على الحياء ، وهو رأس كل خير ، وتمنعه من: الفحشاء ، والبخل ، والكذب ، والغيبة ، والنميمة.
والشجاعة: تحمله على عزة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى ، الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته ، وتحمله على كظم الغيظ والحلم. فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنانها ، ويكبحها بلجامها عن النزع والبطش. كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: "ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد: الذي يملك نفسه عند الغضب " ، وهو حقيقة الشجاعة ، وهو ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه.
والعدل: يحمله على اعتدال أخلاقه ، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط ، فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الذل والقِحة ، وعلى خلق الشجاعة ، الذي هو التوسط بين الجبن والتهور، وعلى خلق الحلم الذي هو التوسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس. ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة.
ومنشأ جميع الأخلاق السافلة ، وبناؤها على أربعة أركان: الجهل ، والظلم ، والشهوة ، والغضب.
فالجهل: يريه الحسن في صورة القبيح ، والقبيح في صورة الحسن. والكمال نقصاً والنقص كمالاً.
والظلم: يحمله على وضع الشيء في غير موضعه ، فيغضب في موضع الرضى ، ويرضى في موضع الغضب ، ويحجم في موضع الإقدام ، ويقدم في موضع الإحجام ، ويلين في موضع الشدة ، ويشتد في موضع اللين ، ويتواضع في موضع العزة ، ويتكبر في موضع التواضع.
والشهوة. تحمله على الحرص والشح والبخل ، وعدم العفة والنَّهمة والجشع ، والذل والدناءات كلها.

والغضب: يحمله على الكبر والحقد والحسد ، والعدوان والسَفَه.
ويتركب من بين كل خلقين من هذه الأخلاق: أخلاق مذمومة. وملاك هذه الأربعة أصلان: إفراط النفس في الضعف ، وإفراطها في القوة فيتولد في إفراطها في الضعف: المهانة والبخل ، والخسة واللؤم ، والذل والحرص ، والشح وسفساف الأمور والأخلاق.
ويتولد من إفراطها في القوة الظلم والغضب والحدة ، والفحش والطيش.
ويتولد من تزوج أحد الخلقين بالآخر أولاد غيَّة كثيرون. فإن النفس قد تجمع قوة وضعفاً. فيكون صاحبها أجبر الناس إذا قدر ، وأذلهم إذا قهر ، ظالم عنوف جبار ، فإذا قهر صار أذل من امرأة: جبان عن القويّ ، جريء على الضعيف. فالأخلاق الذميمة: يولد بعضها بعضاً ، كما أن الأخلاق الحميدة: يولد بعضها بعضاً.
وكل خلق محمود مكتنفٌ بخلقين ذميمين وهو وسط بينهما. وطرفاه خلقان ذميمان ، كالجود: الذي يكتنفه خلقا: البخل والتبذير. التواضع:الذي يكتنفه خلقا: الذل والمهانة والكبر والعلو (14).
*يتبع *

**الهوامش:**

1 - مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية 14/38.
2 - مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيميه 10/98.
3 - المصدر السابق ، 16/96.
4 - مجموع الفتاوى 55/1 ، 4 /ا 179.
5 - في ظلال القرآن 1/55 ط. دار المعرفة اللبنانية.
6 -- تفسير ابن كثير 2/214 ط. دار الفكر.
7- في ظلال القرآن 6 / 667.
8 - في ظلال القرآن 8/426.
9 - فتح الباري ج ه ، رقم الحديث 2587 ، ط. السلفية.
10 - المصدر السابق ، رقم الحديث 2707.
11 - صحيح البخاري 13/167 باب كيف يبايع الناس ، النسائي 7/37 في البيعة على السمع والطاعة.
12 - مسلم 2827(الإمارة) باب فضيلة الإمام العادل.
13 - سنن النسائي ، شرح السيوطي وحاشية السندي 3/55 باب الدعاء بعد الذكر ، ط. دار إحياء التراث.
14 - ج 2 ، ص 308 من مدارج السالكين تحقيق محمد حامد الفقي ، ط. دار الكتاب العربي.

# وكسرت رمحي...

شعر:علي محمد

بكت الديار لفرقة الأحباب ومصائبي أوهت عصيَّ شبابي

وغدا التشرد خبزنا وطعامنا يا طيب خبز الفارس الجواب

هذا يدرس في الخليج وغيره يسعى ويطرق أبعد الأبواب

حتى إلى الأفغان شرق نجمنا وأضيء ليل الغرب بالأغراب

وبقيت وحدي لا أباً لك حائراً بين "الخليل" وبدعة "السياب"

أغدو إلى النسمات أسأل بعضها علّ النسائم قابلت أحبابي

وأسائل الركبان علَّ مسافراً يشفي الغليل بجملة وجواب

بي رغبة في أن أعيش همومكم وأبثكم همي وسر عذابي

فلقد خرجت من الكنانة ضائعاً بعد الهوان وعيشة السرداب

وأضعت في أرض الشام قضيتي وكسرت رمحي في ربيع شبابي

وغراس دعوتي الحبيبة أودعت سجناً غليظاً مُوصَدُ الأبواب

وعلى ذُرى لبنان ثمة شاهد أني فريسة أكلب وذئاب

ويدوسني علج وأزعم أنه شهم يخفف لوعتي ومصابي

أمشي ويتبعني الهوان ودمعتي والذل والبلوى وصوت غراب

ولقد تركت العز عز محمد أملاً ببارق خلب كذاب

وغرقت في لبس الأنيق وغرني حسن الحضور بمجلس النواب

أنسى عداء المجرمين سياسة وأغيظ أهلي من بذيء سبابي

للظالمين تحيتي ومودتي ولأهل ديني طعنتي وحرابي

هذا جحيم لا يطاق ومنطق يأباه وحش قابع في الغاب

إن الذين تذوقوا طعم الهدى ويسوؤهم حال الهوى الغلاب

سيوحدون صفوفهم لينوروا درب الحياة بسنة وكتاب

**تمت بحمد الله**